وأصبحتُ مقْصَى بعد أن كنت مُطَفى ∴ وأمسيتُ مُلقىً بعد ما كنت مُجْتَبى[1]

نأيتُ فيا شوقاهُ عن أبيضِ الجَدا ∴ وسرتُ فيا لهفاهُ عن أخضرِ الرُبَا[2]

عَنِ المالكِ الأمْلاكِ رأياً وحكمةً ∴ وفاضِلهم عَلْما وحِلْما ومَنْصِباً[3]

تجوبُ ملوكُ الأرض أقصَى بلادِها ∴ لِبابٍ تراها فيه خسأي ولُغَّبا[4] (*)

* * *

تصوير الأدب للحياة المصرية

لقد صور الشاعر الحياة عند المصريين أصدق تصوير فصور لنا أعيادهم الدينية والاجتماعية.

كأنه عاشق وافى على شرف ∴ يرعى الحبيب فإن لاح الرقيب خبا

وكذلك صور لنا جانب من جوانب لهوهم وزهدهم.

أولاً- الأعياد الوطنية والدينية:

يطالعنا الأدب العربي بسجل حافل عن أعياد مصر القومية والدينية التي كانت تحتفل بها حكومةً وشعباً في عصر ازدهارها الأدبي وهي أعياد مختلفة المصادر متعددة النزعات تجمعت من جهات بعيدة أو قريبة، فبعضها يرجع إلى العصور الفرعونية كالاحتفال بوفاء النيل، وبعضها عرفته مصر من خلال احتكاكها بغيرها من الشعوب كعيد النيروز الذي أخذته عن الفرس وأمدتها المسيحية بأعيادها كعيد رأس السنة وعيد الغطاس، كما أمدها الإسلام بعيدي الفطر والأضحى،

---

(1) : بعد أن كنت مجتبى.
(2) فيا لهفي على.
(3) : غدا مالك الأملاك.
(4) خسري : حيري بدلاً من (خسأي)0
(*) راجع الديوان ص538 : 539.

واستحدثت الشيعة في مصر أعياداً خاصة كيوم عاشوراء وغيرها.

وأصبحت هذه الأعياد مظهراً من مظاهر مصر الاجتماعية ومجالاً يستظهر فيه الحكام قوتهم تمكيناً لنفوذهم، ومسرحاً يتبارى فيه الكتاب بأقلامهم فينشئون الرسائل مهنئين ويزفون بها إلى سائر الأمصار مبدعين في وصف ذلك اليوم وما جرى فيه. كما كانت مهرجاناً شعرياً تلهج فيه ألسنة الشعراء بوصف اليوم ومديح السلطان، ويتلقى فيه المبدعون جوائزهم وعطاياهم[1].

وقد أشار (عمارة اليمني) إلى كثرة الأعياد الوطنية والدينية في مصر الفاطمية في قصيدة رثى بها دولة الفواطم- فقال:

أبكى على ما تراءت من مكارمكم ∴ حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيَّافة كانت أُنس وَافدكم ∴ واليوم أوْحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إذْ أضحت مكارمكم ∴ تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس في الفصْلين قد درست ∴ ورثَّ منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان في يوم الخليج لكم ∴ يأتي تحمُّلكم فيه على الحمل
وأول العام والعيدين كم لكم ∴ فيهن من وَبْل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما ∴ يهتز ما بين قصريْكمُ من الأَسَل
والخيل تعرض في وَشْيٍ وفي شية ∴ مثل العرائس في حلى وفي حلل[2]

(1) يوم وفاء النيل:

لعل أقدم أعياد مصر القومية هو عيد وفاء النيل الذي علم المصريين أن يستقبلوه بالفرحة والبشرى في أيام معلومة من العام، فيخرج

(1) خطط المقريزي ج2/384.
(2) خطط المقريزي ج2 ص393.

السلطان والأمراء يسيرون في مركب من الجنود ويتوجهون إلى باب اللوق ويلعبون الكرة ويحتشد الناس من كل فج يأكلون ويشربون ويمرحون ويشاركون في مختلف الألعاب احتفاء بوفاء النيل.

ويبدع كتاب الديوان في إنشاء رسائل يزفونها إلى مختلف أقطار الخلافة تخبرهم ببلوغ الماء وارتفاعه واحتفاء السلطان وجنوده وشبعه، وتدعوهم إلى مشاركة مصر، فرحتها بإقامة مهرجانات مماثلة في كل إقليم وقطر البهجة سائر الناس.

وهذه رسالة موجهة من الخليفة الفاطمي إلى واليه علي "طرابلس" في تلك المناسبة:

"ولما كان يوم كذا ركبنا إلى الميدان السعيد في أتم وقت أخذ من السعد بمجموعه وأظهر في أفق العساكر من وجهنا الشريف البدر عند طلوعه، ولم نبرح يومنا المذكور في عطاء نجيده، وإنعام نفيده، وإطلاق نبدئه ونعيده، والأولياء بين أيدينا الشريفة يمرحون، وفي بحار كرمنا المنيف يسبحون، وفي ميدان تأييدنا المطيف يسيحون والكرات كالشمس تجنح تارة وتغيب، وتخشى من وقع الصوالحة فتقابلها بوجه مصفر مريب، ثم عدنا إلى القلعة المنصورة على أتم حال، وأسعد طالع بلغ الأنام الأمان والآمال والعساكر بخدمتنا الشريفة محدقون، ومماليكنا بعقود ولائنا مطوقون، والرعايا قد ألبسها السرور أثواباً، وفتح لها من الابتهاج أبواباً، وقد آثرنا إعلام الجناب بذلك ليأخذ حظه من هذه المسَّرة والبشرى، ويشترك هو والأنام في هذه النّعْمة الكبرى، ومرسومنا للجناب أن يتقدم بالركوب بمن عنده من الأمراء في ميدان طرابلس المحروسة،

ويلعب بالكرة على جاري العادة في ذلك ليساهم أولياء دولتنا القاهرة في ذلك، ويسلك من طرقهم الجميلة أجمل المسالك"[1].

ويرتبط بفرحة الوفاء للنيل احتفال آخر هو فتح الخليج وربما كان الاحتفالان في يومين مختلفين في بعض العصور ثم الاحتفال بهما احتفالاً واحداً فيما بعد[2].

ومهما يكن من أمر فإن الأدب العربي شعره ونثره سجل لنا مباهج الشعب واحتفاء السلطان ومساهمة الأدباء والشعراء في الاحتفال بهذا اليوم.

يخاطب "عمارة اليمني" الخليفة العاضد مهنئاً ومادحاً بيوم الخليج فيفضله على سائر الأعياد واصفاً الماء أيام الفيضان وقد تكدر لونه، ثم يقارن بين عطاء النيل وعطاء ممدوحه:

شرفَت أمير المؤمنين مواسم ∴ أضحت تؤرخ باسمكم وتسطر
وأجلها يوم الخليج فإنه ∴ من بينها يوم أغر مشهر
وافاك فيه النيل وهو من الحيا ∴ خجل يقدم رجله ويؤخر
لولا تعثره بأذيال الثرى ∴ ما كان مذروراً عليه العثْير
لو لم تغبر بالندى في وجهه ∴ ما لاح قط عليه لون أغبر
ولقد عدمناه فَنُبْتَ نيابة ∴ عزَّ الغنى بها وأثرى المعر[3]

وتطير الرسائل حاملة آيات البشرى مفصلة ما جاء في ذلك اليوم، مطمئنة سائر الأقاليم بسلامة الموكب السلطاني ونجاح الاحتفال

---

(1) صبح الأعشى ج8 ص335.
(2) المرجع السابق ص 335.
(3) ديوان عمارة اليمني ص22، 224.

القومي.

وهذه رسالة موفدة من مصر إلى نواب السلطة بالممالك الشامية:

"... ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القبط بادرت إلى الوفاء شيمة، وأغنت أمواجه عن منة السحب فذمت عندها ديمة، وزار البلاد منه أجل ضيف فرشت له صفحة خدها للقرى فعمها كرَمه، وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعاً ورفع لواءه بالمزيد ونشر وجاء بأنواع البشر، فرسمنا بتعليق ستر مقياسه، وتخليقه وتوضيع أنفاسه، وفي صبيحة اليوم المذكور كسر سد خليجه على العادة، وبلغ الأنام أقصى الإرادة، وتباشر بذلك العام والخاص، وأعلنت الألسنة بحمد ربها بالإخلاص. وسطرها وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد، بسيط بحره المديد، متجدد النمو في كل يوم من أيام الزيادة جديد"[1].

وعقب مراسيم الاحتفال بفتح الخليج يجلس السلطان في مكان على النيل ويلتف من حوله علية القوم ويتبارى الشعراء في ذلك الميدان فيدلي كل بدلوه ويفوز أقدرهم بالجوائز والهبات. وهذه صورة لواحد من هذه المهرجانات:

توافد الشعراء على مجلس الخليفة الفاطمي في تلك المناسبة. فتقدم شاعر يدعي (ابن جبر). وأنشد:

فُتِحَ الخليج فسال منه الماء ∴ وعلت عليه الراية البيضاء

فصفت موارده لنا فكأنه ∴ كفُّ الإمام فَعرْفُها الإعطاء

فانتقد الناس قوله: فسال منه الماء وقالوا: أي شيء يخرج من

(1) صبح الأعشى ج8 ص331.

البحر غير الماء ثم تقدم شاعر يقال له مسعود الدولة ابن جرير وأنشد:

ما زال هذا السد ينظر فتحه ∴ إذن الخليفة بالنوال المرسل

حتى إذا برز الإمام بوجهه ∴ وسطا عليه كل حامل معول

فانتقد الناس عليه البيت الثاني، وقالوا: أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه، ومع أنه قصد فتح السد بالمعاول، ولكنه لشؤم طالعه خلط بين الضمائر، ثم تقدم شاعر ثالث يقال له [كافي الدولة أبو العباس] وقال:

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد ∴ للنيل أم لك يابن بنت محمد

أم لاجتماعكما معاً في موطن ∴ وافيتما فيه لأصدق موعد[1]

فنال إعجاب الحاضرين وهبات الخليفة:

وقد أخذ كل شاعر وكاتب بنصيب في وصف النيل والاحتفاء بفتح الخليج "فابن الساعاتي" يتأمل كسر الخليج ويصف يومه بأنه يوم مشهود فيه ما يُرى وما يُسمع، ويشبه انحدار الماء إثر كسره بانحدار الدموع التي تفيض من ذوي القلوب المحطمة:

إن يوم الخليج يوم من ∴ الحسن بديع المرئي والمسموع

كم لديه من ليث غاب صئول ∴ مهاة مثل الغزال المروع

وعلى السد عزة قبل أن ∴ تملكه ذله المحب الخضوع

كسروا جسره هناك فحاكى ∴ كسر قلب يتلوه فيض دموع[1]

وللقاضي الفاضل رسائل متعددة في وفاء النيل كتبها عن السلطان صلاح الدين الأيوبي منها تلك الرسالة:

---

(1) المفصل في تاريخ الأدب العربي، أحمد أمين وآخرين ج2 ص32.

(1) حسن المحاضرة للسيوطي ج2 ص388.

" نعم الله سبحانه وتعالى من أضوئها بزوغاً، وأخفاها سبوغاً، وأصفاها ينبوعاً، وأسناها منفوعا، وأمدها بحر مواهب، وأختمها حسن عواقب النعمة بالنيل المصري الذي يبسط الآمال ويقيضها مده وجزره، ويرمي النبات حجره ويحمي مطلعه الحيوان، ويجني ثمرات الأرض صنواناً وغير صنوان، وينشر مطوي حريرها وينشر مواتها، ويوضح معنى قوله تعالى: "وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا"[1].

(2) يوم رأس السنة:

احتفلت مصر بأول المحرم "بداية العام الهجري" وكان الاحتفال رسمياً وشعبياً وفي الأدب العربي عدة رسائل ديوانية تشير إلى احتفال المصريين بهذه المناسبة، ومنها رسالة نقلها القلقشندي من مذكرة أبي الفضل الصوري جاء فيها:

" الحمد لله الذي لم يزل يولي إحساناً وإنعاماً، وإذا أبلى عبيده عاماً أجدلهم بفضله عاماً، فقد أمدكم معاشر (الخلفاء) كرماً ومناً، وأتاكم من جودة أكثر مما يتمنى ومنحكم من عطائه ما يوفى على ما أردتموه، : "وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ❖وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ"[2][3] وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة، وإذا عملتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة.

وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي غدت الجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه ومهيأة لمن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه، وبين

---

(1) سورة فصلت جزء من الآية : 1.
(2) سورة إبراهيم 33، 34.
(3) حسن المحاضرة للسيوطي ج316/3.

بإرشاده ما تجري أمور السنين عليه في العدد والحساب، ونسخ ما كانت الجاهلية (تفعله) فيه زيادة في الكفر وضلالاً عن الصواب، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كمل الله الإسلام بإمامته: وضاعف الأجر لأهل ولايته، ومنح شيعته مقبول شفاعته. وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه، والقائمين بواجب حقه لي والعاملين في سياسة الكافة بما يرضيه سبحانه. ويضمن غفرانه ورضوانه، وسلم عليهم أجمعين؛ سلاماً باقياً إلى يوم الدين. وإن أحق النعم بنشر الذكر، وارحبها للوصف وأعمال الفكر، نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس، ووضح ضياؤها لأولي الألباب وضوح الشمس، واشتراك الناس فتضاعفت الفائدة لديهم، وانتفعوا بذلك في تواريخهم ومعاملاتهم وما لهم وما عليهم، وتلك (هي) المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها، ومبدؤها ومستقبلها"[1].

(3) يوم عيد الأضحى:

ومن أعياد مصر الرسمية والدينية عيد الأضحى. وكان الخليفة يخرج في موكب رسمي لأداء الصلاة، ويبعث بالتهاني إلى سائر الأقطار، من ذلك ما كتبه ابن الصيرفي في بعض هذه المناسبات.

"وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا: وهو يوم أظهر الله فيه قوة الدولة واقتدارها، وأوجب فيه- رغبة ورهبة- مسارعة النفوس المخالفة إلى الطاعة وابتدارها، وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر،

(1) صبح الأعشى ج8 ص315، 324، 325.

وحافظت على ما تحرزه من كريم الثواب وجزيل الأجر، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأزمة، وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طوالعها، ومهابته تمتع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه وقصد المصلى في كتائب لجي، ومواكب للتعظيم مستوجبة، وعزة تتبين في الشمائل.. والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أرج النفحات"[1].

ويستلهم الشاعر "أبو الحسن بن حيدرة العقيلي" شعائر هذا العيد في مجونه:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ∴ ولا تضح ضحى إلا بصهباء

وعج على مكة الروحاء مبتكرا ∴ فطف بها حول ركن العود والناء[2]

(4) يوم الاحتفال بقدوم شهر رمضان:

وإذا أقبل شهر رمضان تبادل الناس الزيارات وأخذ الشعراء يزفون التهنئة إلى كبار الشخصيات في الدولة، من ذلك ما كتبه ظافر الحداد إلى قاضي الإسكندرية الأفضل بن مكين الله بن حديد في هذه المناسبة مهنئاً:

شهر الصيام بك المها ∴ إذْ كان يشبه منك فنا

ما سار حولا كاملا ∴ إلا ليسرق منك معنى

فإذا مدحناك احتقر ∴ نا ما نقولُ وإن أجدْنا[3]

وتخرج المكاتبات من دار الخلافة المصرية واصفة الاحتفال برؤية

---

(1) صبح الأعشى ج8 ص315، 324، 325.
(2) الفن ومذاهبه في الشعر، د/ شوقي ضيف، ، ص 486.
(3) ظافر الحداد، د/ حسين نصار ص 38.

هلال رمضان وثبوت رؤيته، وتهنئ المسلمين بصوم الشهر ومن ذلك ما كتبه "ابن الصيرفي":

"الحمد لله كالئ خلقه في اليقظة والمنام، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للأنام، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، أخلص وليّ، وأشرف وصيّ وأفضل إمام، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام، صلاة دائمة الاتصال، مستمرة في الغدو والآصال". وإن من المسرة التي تتهادى: والنعمة الشاملة للخلق جميعاً وفرادى ما منَّ الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين يوم كذا غرة شهر رمضان من شهر رمضان من سنة كذا، إعلاماً بأول الشهر وافتتاحه، وإن الصيام الأول من فجره الأول قبل تنفس صباحه، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده، وأوليائه وأنصاره وعبيده، والمنة برؤيته قد تساوى فيها الكافة، وملائكة الله مطيفة حافة، وعودة إلى قصوره الزاهرة، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة"[1].

وربما جاء رمضان يوم الاحتفال بفتح الخليج وهو يوم الشراب واللهو والمتع والطرب فماذا يصنع المصريون وهم ميالون إلى الأخذ بحظهم من المتع وفي الوقت نفسه حريصون على احترام الموروث من العادات والتقاليد وحب الدين واحترامه، يحدثنا المقريزي عن موقف كهذا فيقول:

(1) صبح الأعشى ج8 ص 316.

" كان يوم كسر الخليج من أيام القاهرة وأعيادها يشترك فيه السلطان والأمراء والناس أجمعين: وفي تلك السنة اشتد إفراط الناس وغلبت المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش ولم ينسلخ رمضان إلا وقد شهد ما لم يشهده رمضان قبله في الإسلام[1].

ثم يتابع المقريزي وصف ذلك اليوم فيقول: "ركب العزيز وكثر المتفرجون وازدحم الغوغاء وحملوا العصى وتراجموا بالحجارة وفلقت أعين وخطفت مناديل وكانت العادة جارية بأن يوقر شهر رمضان من اعتصار الخمر ولا يحدث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر وفي هذا الشهر غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، وفيه كثر اجتماع الرجال والنساء على الخليج لما فتح، وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاصي قبيحة "[2].

وربما عكس لنا الشعراء إيثارهم المتعة والشراب على احترام العادات الدينية. وقد تجلى ذلك في موقف أحد الشعراء المصريين عندما أخذ يهنئ أحد الحكام بحلول شهر رمضان فجعل التهنئة في نظره يوم انسلاخ الشهر والعودة إلى التمتع بالطعام والشراب، روى العماد عن الشاعر قمر الدولة أبو طاهر جعفر بن داوس المصري أنه حضر مجلس مؤتمر الدولة بن صدقة والناس يهنئون بشهر رمضان فقال قمر الدولة:

لا أهنيك بالصيام لأني ∴ واثق بالهناء يوم العيد
بل أهنئ بالأكل والشُرب والزَّفْن ∴ وصوت الغنا وجس العود

---

(1) السلوك للمقريزي ج1 ص191، هامش ص 109 من المصدر نفسه0
(2) المرجع السابق ص 136.

لا بصوم يجفف الكبد حتى ∴ يجعل العود وهو مثل العود[1]

(5) يوم عيد النيروز:

ومن أعياد مصر الوطنية عيد النيروز، وقد ظل هذا العيد بين المصريين منذ أخذوه عن الفرس حتى كانت الدولة الفاطمية، وفي عصرها تفنن المصريون بالمباهج والمرح بكثرة أعيادهم وتشجيع الخلفاء ومشاركتهم في كل هذه الأعياد.

وقال (القاضي الفاضل) في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة: وجرى الأمر في النيروز على العادة من رش الماء، واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافح بالأنطاع وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظفر به في الطريق رُشَّ بمياه نجسة"[2].

(6) يوم عيد الغطاس:

ومن أعياد مصر الدينية عيد الغطاس، وهو من أعياد النصارى يشاركهم فيه الشاعر تميم بن المعز لدين الله الفاطمي بأسلوب ساخر فهو يدعهم يقيمون شعائر ذلك اليوم ليمضي إلى ملذاته ويستبدل بالغطاس في الماء الغطاس في "باطية" عامرة بالشراب:

خل من يأثم بالصلـ ∴ بان يغدو في اختلاط
واغد للصهباء نسقا ∴ ها ونسقي ونعاطي
غطسوا في الماء جهلا ∴ وغطسنا في البواطي
وشربناها عقاراً ∴ خندريساً بنشاط [1]

---

(1) الخريدة ج2 ص 22.
(2) السلوك للمقريزي ج1/136 - 137.
(1) ديوان تميم المعز لدين الله الفاطمي، تحقيق محمد حسن الأعظمي، ص258، البواطي: جمع باطية: وهي إناء عظيم من الزجاج يملأ بالشراب ويوضع بين الشاربين يغرفون منه. يقول شهاب الدين النويري عن عيد الغطاس أنه يكون في الحادي عشر من شهر طوبة، ويقولون

كثرة الأعياد المصرية:

لقد شغلت الأعياد المصرية حيزاً غير صغير في الأدب الفاطمي والأيوبي ولا سيما الرسائل الديوانية لكثرتها من جهة، واهتمام الحكام بها من جهة أخرى. ولعل كثرة الأعياد المصرية في تلك المرحلة ترجع إلى الأسباب التالية:

أولاً: وفرة الموروث والمستحدث: فللمصريين حضارات قديمة ورثت عنها بعض الأعياد، ومن بين حضاراتها الدينية أعياد مسيحية، ثم جاءها الإسلام فلم تمنع سماحته ولا رحابة صدور المصريين من أن يجمعوا بين الأعياد المسيحية والإسلامية في مصر، ثم أتاها الفاطميون بأيام جديدة فأوسعت لها مصر مكانة بين أعيادها، وهكذا كان البعد الحضاري سبباً في وجود كثير من هذه الأعياد.

ثانيا: موقف الحكام: فقد كان الحكام يشجعون ويشاركون لعدة أسباب منها:

1- التقرب إلى الشعب المصري: ولا سيما بعد استقلال مصر استقلالاً ذاتياً وما تبع ذلك من محاولة حكامها الاعتماد على شعبها لتدعيم سلطانهم، وقد استلزم هذا التقرب عدم محاربة الشعب فيما عوده من الاحتفالات الوطنية أو الدينية.

2- انتهز الفاطميون فرصة اهتمام المصريين بالأعياد وراحوا يبثون من خلالها عقائدهم ومبادئهم ممثلة في أيام يقترن في بعضها الاحتفال

أن يحيى بن زكريا وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام في بحيرة الأردن، ويزعمون أن عيسى عليه السلام لما خرج من الماء اتصل به روح القدس على هيئة حمامة، والنصارى يغمسون أولادهم فيه ووقته شديد البرد. نهاية الأرب، السفر الأول، للنويري ص 192.

بالتوسعة والمرح وفي غيرها بإظهار الأسف والحز.

3- نجح الفاطميون في اجتذاب المصريين إلى أعيادهم بما أحاطوها من مظاهر الإسراف والمبالغة في الزخرف والترف، لأنهم عرفوا حب المصريين لما فيه مبالغة والمبالغة مطلب الفاطميين. لأنها سبيل الغموض والإخفاء، فكأنَّ المبالغة تختفي فيها الشعائر والمبادئ والأهداف.

ثالثا: طبيعة المصريين، وقد أثرت هذه الطبيعة في كثرة الأعياد من عدة زوايا:

1- فقد اعتلى بعض المسيحيين في الدولة مناصب كبيرة. واهتموا بأعيادهم ولم يجد إخوانهم المصريون من ذوي الأصول القبطية غضاضة في مشاركة إخوانهم بأعيادهم المسيحية، ونظر كل منهم إلى بعض الأعياد الموروثة كوفاء النيل أو النيروز على أنها أعياد مشتركة بينهما، ثم أحيا المسلمون أعيادهم الدينية، وهكذا التقى الجميع على الجمْع بين هذه الأعياد.

2- الطبيعة المصرية مرحة، وكانت هذه الأعياد كما صورها الأدب مهرجاناً للمرح واللعب وتناول الأطعمة واقتراف الملذات، وحتى ما كان يسوده الحزن ليس ببعيد عن هوى الشخصية المصرية فهي شخصية عاطفية والحزن يمثل جانباً فيها.

3- المظهر الجماعي في الأعياد، وهو مظهر يستهوي المصريين ويندفعون إليه، كما لاحظ الأستاذ العقاد أن بائع الحلوى الذي يغني

ويزمر ينتهي من بيعها قبل زميله الذي لا يقوم بذلك الأداء[1].

ثانيا- تصوير مظاهر اللهو والمجون:

أخذت حياة اللهو والمجون مكاناً بارزاً، في الأدب وذلك لانتشارها في المجتمع المصري وتعدد مظاهرها. وكان من العوامل التي ساعدت على وضوحها ظروف الحياة الاجتماعية وتأثير الحروب الصليبية. وقد صور أدب اللهو والمجون بعض ملامح الحياة المصرية من خلال عدة مظاهر:

(1) الدعوة إلى المتع والملذات:

منذ العصور الجاهلية والشعراء هم قادة الناس إلى اقتراف الملذات، وفي العصر العباسي حمل أبو نواس وعصبته الماجنة لواء المجاهرة بهذه الدعوة.

وفي الأدبين الفاطمي والأيوبي نداءات إلى التمتع واللهو رددها الشعراء المصريون فابن النبيه يدعو إلى الحرص على اغتنام الفرصة للتمتع بالشراب. فالعمر كالكأس يروق أوله ثم يمج آخره:

خُذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ∴ وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله ∴ لكنه ربّما مُجَّت أواخره[2]

ويتمادى ابن النبيه في دعواه مهوناً من شأن الذنوب مهما عظم أمرها:

وأجسر على فرص اللذات محتقرا ∴ عظيم ذنبك، إن الله غافره[3]

ويعتز أحد الشعراء بأنه ممثل الشريعة النواسية في مصر،

---

(1) راجع الشخصية المصرية للدكتور/ أحمد سيد محمد ص 25. - 251.
(2) ديوان ابن النبيه المصري ص94.
(3) المرجع السابق ص 95.

مسئول عن إقامة شعائرها من هيام بالغلمان وتغزل بالحسان وإدمان الدنان:

أنا نائب الشرع النواسي ∴ دعني وباطيتي وكاسي
أهوى الغزالة كاعبا ∴ وأهيم بالظبى الخماسي
من كل معتدل رشيق ∴ القد ممشوق خلاسي[1]

وينادي البهاء زهير صاحبه أن يبكر بالصبوح التي وصفها بأنها رائقة كالنسيم، معتقة لم يفض خاتمها، فقد عتقها المجوسي حتى غدا لها قدر عظيم عنده، وتعبد رهبان الدير حولها، ومع ذلك فهي رخيصة السعر وإن كانت عظيمة القدر والقيمة:

رَقَّ في الجو النسّيم ∴ فتفضل يا نديم
وكأن الفجرْ نهْراً ∴ غرقت فيه النجوم
فاجل بالصهْباء ليْلا ∴ بقيتْ منه رسوّم
واسبق الشمس بشمس ∴ لا تواريها الغيوم
قهوة رقّت فما في ∴ كأسها إلاّ نسيم
بنت كرم لم يفز قطّ ∴ بها إلا الكريم
وعلى طينتها من ∴ سالف الدهر ختوم
لم يزل عند المجو ∴ سيّ لها قدر عظيم
ولها الراهب في ∴ الدير يصلي ويصوم
وقليل كل ما يطلب ∴ فيها ويسوم[1]

(2) وصف الخمر ومجالسها:

---

(1) الخريدة ج2/57.
(1) أ - البهاء زهير. د/ عبد الفتاح شلبي ص 103.
ب - شرح ديوان (بهاء الدين زهير)، ص231، 232.

والحديث عن الخمر قاسم مشترك بين جميع الشعراء المصريين في هذه الفترة وصفوها وصفاً يتم على تجاربهم الحقيقية معها، وإن كنا نلاحظ تشابهاً كثيراً بين وصفهم الخمر ومجالسها مع ما ردده أتباع أبي نواس، فابن النبيه يدعونا إلى التبكير بالصبوح ويصف لونها وتغيرها عند امتزاجها بالماء.

قم فاصطبح من شمس كأسك واغتبق ∴ بكواكب طلعت من الكاسات

صفراء صافية توقد بردها ∴ فعجبت للنيران في الحانات

ينسل من قار الظروف حبابها ∴ والدر مجتلب من الظلمات

وتريك خيط الصبح مفتولا إذا ∴ مرقت من الروق في الطاسات

عذراء واقعها المزاج أما ترى ∴ منديل عذرتها بكف سقاة؟[1]

ويتأمل "النجيب أبو المكارم" خمره المعتقة وقد لاح من الدن نورها يسطع كالشمس قائلا:

ومحجوبة في الدَّنّ قد كانت الألى

∴ قديما أعدَّتها لصرف همومها

يلوح من الكاسات ساطع نُورها

∴كشمس تبدت مكن فُتوق غيومها

ولست ترى إلا شعاعاً وإنما

∴ يدل عليها نغمةٌ سن نسيمها[2]

ويتأمل شاعر آخر حركة احتساء الكأس وعودة امتلائه من يد الساقي فيصور فقاقيعها بعقد قد ارتسم فوق الكأس ثم أخذت صورته

---

(1) ديوان (ابن النبيه المصري) ص124.
(2) الخريدة ج2 ص 154.

تتضاءل في قاع الكأس عند احتسائها وكأن صورة العقد وقعت ساجدة، فإذا عادت الكأس إلى الامتلاء تلاشت تلك الفقاقيع وتبددت الصورة:

وكم ليل جلوت الكأس فيه ∴ وقد نظمَ الحبَابُ له عُقُود

ونادمْنا به صورا إذا ما احتـ ∴ ساها شاربٌ وقعتْ سجودا

يلُبّسها المدير لها برودا ∴ فيسلُبُ شربها تلك العقودا[1]

(3) وصف أماكن اللهو:

كانت الأديرة مكاناً للمتع والشراب، وما أكثر هذه الأديرة التي تغني فيها الشعراء المصريون وغيرهم من زمن بعيد

ويحدثنا تميم بن المعز الفاطمي عن صبواته في دير القصير مع رفاقه طلاب القصف والشراب الذين يطيب له أن يخلع معهم نقاب العذار ليصل متعة الليل بالنهار:

كم بدير القُصَيرْ لي من بكور ∴ ورواحٍ على الصّبا والعقارِ

حيث أخلو بما أحبّ من القصْـ ∴ ـف قليل الوقار لست أداري

كم صبوح شدّدْتُه بغبوق ∴ وظلام وصلته بنهار

إنما العيش أن تروح عشيا ∴ قاصفاً عازفا خليع العذار[2]

وكانت الأديرة منتشرة في أرجاء مصر. ففي أقصى الصعيد كان دير قنا مرتاداً للهو والملذات، يقول عنه " ابن جهور ":

يا منزل اللهو بدَيْر قنا ∴ قلبي إلى تلك الربى قد حنا

---

(1) المرجع السابق ص155.

(2) ديوان تميم بن المعز لدين الله تحقيق محمد حسن الأعظمي ص235، ودير القصير على رأس جبل مشرف على النيل قرب حلوان0

سُقياً لأيامك لما كنا ∴ نمتار منك لذة وحسنا

أيام لا أنعم عيش منا ∴ إذا انتشينا وصحونا عدنا[1]

وما أكثر أماكن اللهو التي تردد عليها المصريون يطربون ويرقصون ويشربون وقد شغفوا بالبرك وراحوا يبحثون عنها في كل مكان فإن لم يجدوها في بقعة حاذت إعجابهم وطاب لهم التنزه إليها حفروها فيها وجلبوا إليها الماء وأقبلوا على الخروج إليها جماعات في المواسم وفي غيرها، يقضون عندها الأيام الطوال والقصار في فنون اللهو وصنوف السمر ويستبحثون الشعراء على النظم: من ذلك ما روي أن أبا البركات بن عثمان أخذ ورداً أحمر وألقاه في البرك وطلب من رفيقه ظافر أن ينظم شيئاً فيما رأى فقال:

وساعة جاد بها العمـ ∴ ـر نام عن خلستها الدهر

والطير والدولاب يشْدو لنا ∴ كمطرب يتبعه زمر

والورد فوق الماء ما بيننا ∴ قد نثرت أوراقه الحمر

لم ترعيني منظراً مثله ∴ ماء تلظى فوقه جمر[2]

وانتشرت على شواطئ النيل وخلجاته أماكن المتع التي كان يغشاها جماعات الشعراء يصف "الباء زهير" واحداً من هذه الأماكن العديدة وما فيه من عيش رغيد ويستغفر ربه عما اقترفه هناك من الملذات:

حَبَّذا دور على النيـ ∴ ـل وكاسات تدور

ومسرات تموج الـ ∴ أرض منها وتمور

---

(1) الطالع السعيد، هامش ص 12.

(2 ظافر الحداد، د/ حسين نصار ص 113.

وقصـور مـا لعـيش ∴ نلتـــه فيهـــا قصـــور
كـم بهـا قـد مـر لـي ∴ أســـتغفر الله ســـرور
كـل عـيش غيـر ذاك ∴ العيش في العالم زور
منزل ليس على الأر ∴ ض له عندي نظير[1]

ويقدم لنا "البهاء زهير" في إحدى قصائده صورة كاملة من حياة المصريين في هذه الفترة وخروجهم للتنزه على اختلاف طبقاتهم، العابد والفاسق كل ينشد من التنزه ما يريده، ولكل نصيب، فعطاء الطبيعة المصرية وحياة شعبها يمنحان كل طالب مبتغاة:

نزلنـا شـاطئ النِّيـل ∴ على بُسط الأزَاهير
وقد أضحى له بالموْ ∴ ج زَجْـه ذو أسـارير
وفي الشَّط حباب مثل ∴ أنصـاف القـوارير
تسـابقنا إلـى اللهـو ∴ واتيْنـــا بتبكيـــر
وفينـــا رب محـــراب ∴ وفينـا رب مـاخور
ومـن قـوم مسـاتير ∴ ومن قوم مساخير
ومن جد ومن هزل ∴ ومن حق ومن زور
فطورا في المقاصير ∴ وطورا في الدساكير

وينحاز الشاعر إلى طائفة المتمتعين بجمال الطبيعة وشرب الخمر يحتسونها في هذا المكان البهيج مع أنغام الشحارير وصوت النواعير:

عـلا حسُّ النـواعير ∴ وأصـواتُ الشَّـحارير
وقـد طـاب لنـا وقـت ∴ صفا من غير تكدير
فقـم يـا ألـف مـولاي ∴ أدِرْهـا غيـرْ مـأمور

(1) البهاء زهير، د/ عبد الفتاح شلبي ص 99.

وخـــذها كالـــدنانير ∴ علـى رَغْـم الـدنَّانير
أدرها من سنا الصبح ∴ تـزد نـوراً علـى نـور
عقـاراً أصـبحت مثـل ∴ مبـاء غيـر منشـور
بدت أحسن من نـار ∴ رأتها عين مقرور[1]

ثالثاً تصوير مظاهر الزهد والتصوف:

من المظاهر الاجتماعية ذات الدلالات النفسية في تصوير الحياة المصرية انتشار الحركة الصوفية في مصر، وقد شغلت هذه الظاهرة جانباً غير قليل في الأدب المصري شعره ونثره، وأصبح الأدب الصوفي غرضاً متميزاً عن غيره من أغراض الشعر والنثر ولا سيما في القرنين السادس والسابع للهجرة حيث أسهم كبار رجال الصوفية المصريين بإنتاجهم الأدبي أمثال: ابن الكيزاني، وابن الفارض، وابن الصباغ القوصي، وإبراهيم الدسوقي، وابن عطاء الله السكندري، وأبي الحسن الشاذلي وغيرهم.

وقد مرت الصوفية بأطوار مختلفة في مصر، وعلاقة الحركة الصوفية كفكر أو تطبيق مع المصرية محك للكشف عن بعض خصائصها ومميزاتها.

وكانت هذه النشأة الصوفية في مصر مماثلة لنشأتها في بقية الأمصار الإسلامية فقد عرفت الكوفة والبصرة لوناً من هذا التصوف في تلك الفترة تمثل في تلك المواعظ، وهاتيك الحكايات التي كانت تلقى

(1) البهاء زهير، د/ مصطفى عبد الرازق، ط/1، القاهرة: دار الكتب المصرية 1930 ص 83، 84.

في مساجد الأمصار الجامعة بقصد التخفيف من غلواء النزعة المادية التي أخذت تغزو المجتمع العربي الإسلامي وقتذاك.

ولكن هذه الفكرة الصوفية البسيطة المحببة إلى نفوس المصريين بدأت تأخذ شكلاً آخر في أوائل القرن الثالث الهجري حينما أخذت الصوفية تحدد لها فكراً خاصاً حيال سلوك الإنسان الظاهري والباطني تجاه الدنيا ونحو الله، وتجلت هذه النزعة فيما رواه أبو الفيض ذو النون المصري فهو يناجي الله قائلا: "لئن مددت يدي إليك داعياً لطالما كفيتني ساهياً.. أقطع منك رجاي بما عملت يداي حسبي من سؤالي علمك بحالي".

ويروي للناس قصصاً يذكر فيها "المقامات" و "الأحوال"[1]. وقد وضح الدكتور محمد كامل حسين اختلاف الدارسين حول مصدر آراء ذي النون، فمن قائل أنه أخذها عن أستاذه شقران العابد، وقيل عن فاطمة النيسابورية، وقيل عن رهبان الأديرة في مصر الذين لقنوه شيئاً من تعاليم الأفلاطونية الحديثة، ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات حول أصول فلسفة ذي النون الصوفية، فإننا نراه يتجه في تصوفه إلى لون جديد لم نعهده في صوفية مصر من قبل، ظهر فيما اصطلح على تسميته (الحب الإلهي)، فلا غرابة أن نرى المسلمين بمصر لا يقبلون منه هذا الرأي الديني الجديد ورموه بالزندقة وحمل في محنة خلق القرآن

(1) الأدب الصوفي في مصر، د/ صافي حسن ص 151.

إلى الخليفة المتوكل العباسي، ولذلك نرى أن أكثر الذين أخذوا بآراء ذي النون الصوفية ودعوا إلى مذهبه لم يكونوا من أهل مصر، بل لم يكن له أثر يذكر في مصر. فنحن لا نجد في عصره ولا في العصر الذي يليه مباشرة من قال في مصر مقالته أو اتخذ طريقته؛ بل عاد صوفية مصر إلى الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإلى الزهد، واستمر الحال على ذلك حتى القرن الرابع للهجرة"[1].

وقبول المصريين للتصوف بهذا المعنى أمر يتفق وخصائص الشخصية المصرية التي كونتها عوامل البيئة الجغرافية، وصقلتها التيارات الحضارية المختلفة، فصحراء مصر ووادیها المنبسط واعتدال مناخها وصفاء جوها عوامل ساعدت على تكوين شخصية صافية النفس. وصفاء النفس أول درجة في سلم الصعود إلى التصوف وشرط أساسي لتقبله.

ولم يكن نظام التعبد بالخلوة أو بالانقطاع عن الناس أمراً غريباً عن المصريين فلقد ابتدعت مصر الرهبنة وعلمتها أمماً كثيرة غيرها.

وكان رفض المصريين قبول الأفكار الصوفية ذات الصبغة الفلسفية أمراً مقبولاً أيضاً في تلك الفترة إذ لم تكن النفوس قد تهيأت بعد لقبول هذه الأفكار.

وبهذا تحددت معالم الصوفية في مصر إبان القرن الثالث

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، د/ محمد كامل حسين ص 53.

للهجرة، وهي لون من ألوان الورع والزهد والحض على التقرب إلى الله تعالى بالعبادة، ففكرة التصوف الفلسفي لم تكن معروفة في مصر قبل العصر الفاطمي.

وفي القرن الرابع الهجري أخذت الصوفية في مصر مظهراً جديداً عندما استغل دعاة الشيعة استعداد المصريين لتقبل المبادئ الصوفية في صورها المبسطة وراحوا يبثون دعواهم من خلال هذا الاستعداد، فكان الدعاة الشيعيون يظهرون الزهد والورع لجذب من لم يعتنق الدعوة، فكأن الدعاة للإسماعيلية لم يختلفوا في مظهرهم عن الصوفية الذين عرفتهم مصر من قبل، وكان الدعاة يأمرون العامة بالتمسك بالعبادة العملية التي تعرف عند الإسماعيلية "بالعلم الظاهر" وينشرون بين الخاصة العبادة التي سموها "علم الباطن" أو "التأويل"، وهنا اقتربت بعض آراء المتصوفة من آراء الإسماعيلية[1].

واعتنت السلطات الحاكمة بالصوفيين، فأخذت تشجعهم وتقيم لهم نوعاً من التنظيم. فالحقيقة الآمر الفاطمي جدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية فكان يجلس في الطابق بأعلى القصر، ويرقص "أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط، ومدت لهم الأسمطة التي عليها كل لذيذ وشهي من الأطعمة والحلوى، وكان بين الحاضرين

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، د/ محمد كامل حسين ص 53.

الشيخ أبو عبدالله بن الجوهري الواعظ وعليه مزق مرقعة على العادة خرقاً. وسأله الشيخ أبو إسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقري خرقة منها ووضعها على رأسه[1].

ويصور الأمير تميم بن المعز حالة الصوفيين الفقراء، وقد اتخذوا من القرافة مأوى وسكناً، فأصبحت القرافة بحلولهم فيها عامرة بالطهر والعفاف، نسيمها الطيب يحي النفوس، وشمسها بهيجة مشرقة، وسكانها: ما بين مؤذن بالليل، وذاكر ربه خاشعاً ومبتهل إلى الله بطول الدعاء:

إذا كنت مصطفياً مرْبعاً ∴ فخصَّ "القرافة" بالاصطفاء
منازل معمورة بالعفا ∴ ف مخصوصة بالتقى والبهاء
كأن العبيرَ لها تربة ∴ تضَّوع في صبحها والبهاء
ويحيى النفوس بأرجائهن ∴ رقيق النسيم وطيب الهواء
ديار أدير بهن النعيم ∴ ومغني كملتذ رجع الغناء
تزيد الشموس بها بهجة ∴ وتحسن في مقلتي كل راء
وينْبه فيها النيَّامَ الأذان ∴ إذا مزَّق الليل سيف الضياء
فمن ذاكر ربه خشية ∴ ومن مستهل بطول الدعاء[2]

ولا شك أن بعض هذا السلوك الصوفي صادف هوى في الشخصية المصرية فحلقات الذكر والرقص والإنشاد والطرب والطعام والشراب، والإسراف في المظاهر أياً كانت مظاهر ثراء أو فقر حببت الصوفية إلى

(1) المرجع السابق ص55.
(2) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي ص27.

نفوس المصريين، ومن ثم فإن إقبال المصريين على التصوف العملي كان بدافع حسي أو عاطفي وجداني أكثر منه اندفاعاً بسبب متصل بالفكر أو العقيدة أو الفلسفة.

وفي العصر الأيوبي أخذت الحركة الصوفية في مصر مظهرين:

1- مظهراً اجتماعياً يتمثل في التنظيمات الرسمية والشعبية للصوفية.

2- مظهراً فكرياً يتمثل في انتشار بعض الأفكار والمبادئ بأسلوب خاص في الأدب العربي شعره ونثره، ففي سنة 569هـ وقف صلاح الدين الأيوبي دار سعيد السعداء للفقراء المتصوفين القادمين من البلاد المختلفة وولي عليهم شيخاً كما وقف عليهم بستان الجبانة لجوار بركة الفيل، وقيسارية الشراب بالقاهرة وناحية دمنهور من البهنساوية، وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين ديناراً فمات دونها كانت للفقراء ولا يتعرض لها الديوان السلطاني، ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره، ورتب لهم في كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً وبني لهم حماماً بجوارهم[1].

فكانت دار سعيد السعداء[2] أول خانقاه أقيمت للصوفية في

---

(1) دراسات في الشعر في عهد الأيوبيين د/ محمد كامل حسين ص 64.

(2) الخانقاه والرباط والزاوية وجمعها خوانق ورباطات وزوايا معاهد دينية إسلامية للرجال والنساء وهي كالأديرة في المسيحية ويطلق للرباط أحياناً على الدير المسيحي كما يقال للراهب المسيحي رابط غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوماً للرهبنة وإنما أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم والزهاد والعبادة وكان غرض = =منشئيها والمتصدقين عليها فعل الخير واكتساب الثواب. لفظ الرباط والزاوية عربيان فأصل الرباط مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو كما أن الزاوية في الأصل الركن من الدار أو المكان عامة (محيط المحيط) أما الخانقاة ففارسية ومعناها البيت وهي حديثة في الإسلام في حدود الأربعمائة وجعلت لتخلي الصوفية فيها للعبادة والتصوف وأول من أحدث الخوانق في مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكانت الخانقاه التي أنشأها داراً تعرف أولاً بدار سعيد السعداء نسبة إلى= = الأستاذ قنبر سعيد السعداء عتيق الخليفة المستنصر الفاطمي وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها وفتح من

عهد الأيوبيين، ثم توالت بعد ذلك الخوانق في مصر حتى كثرت، واسترعى كثرتها انتباه "ابن بطوطة" فقال: "بمصر يتنافسون في بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم من المعدمين وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب أمورهم عجيب"[1].

ولا شك أن كثيراً من المصريين اتخذ طريق التصوف حتى ينعم بما كان ينعم به غيرهم من سكان الخوانق، أي أنهم اتخذوا التصوف وسيلة للحياة الدنيا[2].

ويرتبط بالمظهر الأول أهداف سياسية للدولة الأيوبية فقد أراد الأيوبيون اقتلاع جذور الفكر الشيعي من مصر بعد القضاء على حكمهم. ولما كانت الدعوة الشيعية الإسماعيلية قريبة في بعض نواحيها من الفكر التصوفي الفلسفي، فقد فكر الأيوبيون في مناهضة الفكر بالفكر وراحوا يستقدمون كبار رجال الصوفية من مختلف البلاد: فوفد على مصر عدد كبير من الصوفية الغرباء منهم: محيي الدين بن عربي، وأبو الحسن الشاذلي، والسيد أحمد البدوي: فهؤلاء وأمثالهم من زعماء المتصوفة هم الذين دخلوا مصر حاملين آراء الصوفية التي لم تعرفها مصر من قبل وكان لهم أثر في تطور التصوف بما جلبوه معهم من

دار الوزارة إليها سرداباً تحت الأرض ليمر فيه ثم سكنها الوزير شاور بن مجير في أيام وزارته ثم ابنه الكامل فلما ملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير مرسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد عمل هذه الديار برسم الفقهاء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة ووقفها عليهم في سنة تسع وستين وخمسمائة. انظر السلوك ج1 هامش 262.

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، ج5 ص 64، 65، 66.

(2) المصدر السابق نفسه.

آراء جديدة[1].

وقد يبدو غريباً أن تقبل مصر على هذا النمط من التصوف وهو التصوف الفكري لأنه يناقض ما عرفت به الشخصية المصرية من البساطة والمرح والتمتع وهي الصفات التي حددت موقفها من التشيع، وموقفها من التصوف بمعناه البسيط (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أو الانقطاع للعبادة أو الجانب العملي منه كاللجوء إلى الخوانق والانضمام إلى حلقات الرقص والإنشاد.

ولكن الدكتور محمد كامل حسين يحاول تفسير شيوع هذا النوع من التصوف الفكري ويرده إلى الظروف التي أحاطت بنشاط " ابن الكيزاني " الشاعر الصوفي الذي ظهر في أواخر العصر الفاطمي، وكان يؤمن بمذهب الحب الإلهي ويمزجه بالمواقف الوعظية كما يبدو في قوله:

صرفوا عني طبيبي ∴ ودعوني وحبيبي
عللوا قلبي بذكر ∴ ها فقد زاد لهيبي
طاب هتكي في هواه ∴ بين واش ورقيب
لا أبالي بفوات النفس ∴ ما دام نصيبي
ليس من لام وإن ∴ أطنب فيه بمصيب
جسدي راض بسقمي ∴ وجفوني بنحيبي[2]

وقد كان لطريقة "الكيزاني" أثر في نفوس المصريين، فقد أقبلوا عليها ليشغلوا الفراغ النفسي الذي تركه الدعاة الإسماعيليون.

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص 66.
(1) الخريدة ج2 ص 2.

ولما وجد المصريون أنفسهم بعد انقراض الدولة الفاطمية قد حرموا مما يغذى عاطفتهم الدينية في أي صورة كانت اتجهوا للتصوف وأحلوه في نفوسهم وحياتهم محل ما كان يسمعونه من الدعاة الإسماعيليين. وذلك للتقارب الشديد بين آراء الصوفية وآراء الإسماعيلية، فالدعاة الفاطميون يتخذون من العقل طريقة للوصول إلى المعرفة وإلى الله والمتصوفة يريدون أن يصلوا بالمرتد إلى المعرفة وإلى الله عن طريق الذوق والرياضة.

والحياة المصرية في ذلك العصر كانت تدعو إلى شيء من الاستسلام للمقادير والاتجاه إلى الله، والزهد في الدنيا، فالحروب الصليبية، والفتن الداخلية جعلت المصريين يتطلعون إلى لون من ألوان الحياة الروحية عساها تخفف عنهم هذه الآلام التي حاقت بهم من كل جانب. وكان المصريون في العصر الفاطمي يهرعون إلى الدعاة ويستغيثون بالأئمة اعتقاداً منهم بأن الأئمة ملاذ كل مستغيث، وكانت العقيدة الإسماعيلية تأمرهم بذلك، وفي العصر الأيوبي لم يجد المصريون هذا الملاذ فاتجهوا إلى شيوخ الطرق الصوفية[1].

وقد ظهرت في الأدب المصري أفكار جديدة رددها الصوفيون في قصائدهم ورسائلهم المتبادلة فيما بينهم، ومواقف الوعظ والتذكير، والأوراد التي يتعبدون بها واقترنت هذه الأفكار بأسلوب خاص. ولست هنا بصدد دراسة الفكر الصوفي في الأدب المصري، وإنما اكتفى بالإشارة إلى بعض هذه الأفكار التي سادت في تلك الحقبة كمظهر من مظاهر الشخصية الاجتماعية بعد أن درستُ علاقة هذه الشخصية بتطور المفهوم

(2) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، د/ محمد كامل حسين ص 65.

الصوفي وممارسته سلوكاً وتطبيقاً.

ومن أهم هذه الأفكار "فكرة الحب الإلهي" التي رددها كثير من الصوفيين في ذلك العصر من أمثال ابن الفارض في قوله:

نسخت بحبي آية العشق من قبلي ∴ فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل
وكل فتى يهوى فإنني إمامه ∴ وإني برئ من فتى سامع العذْل[1]

وإبراهيم الدسوقي في قوله:

سقاني محبوبي بكأس المحبة ∴ فتهت عن العشاق سكرا بخلْوتي
ولاح لنا نور الجلالة لو أضَا ∴ ء لصمّ الجبال الراسيات لدكت
وكنت أنا الساقي لمن كان حاضرا ∴ أطوف عليهم كرَّة بْعد كرة
ونَادَمني سرا بسر وحكمة ∴ وأن رسول الله شيخي وقدوتي[2]

وفكرة "النور المحمدي" القائمة على أساس أن محمداً نشأ قبل آدم وأن سره وجد قبل خلق الكون فكان النور المحمدي الذي شهده الأنبياء السابقون جميعهم، فسره تنقل من طور إلى طور حتى ظهر في هذا القطب شيخ الوقت.

ويعبر إبراهيم الدسوقي عن هذه الفكرة بقوله:

نعم نشْأتي في الحب من قبل آدم ∴ وسري في الأكوان من قبل نشأتي
أنا كنت في العلياء معْ نور أحمد ∴ على الدرة البيضاء في خلوَّيتي
أنا كنت في رؤيا الذبيح فداءه ∴ بلطف عنايات وعين حقيقة
أنا كنت معْ إدريس لما أتى العلا ∴ وأسكن في الفردوس أنعم بقعة
أنا كنت مع عيسى على المهد ناطقا ∴ وأعطيت داودا حلاوة نغمه

---

(1) ديوان ابن الفارض، ص91، القاهرة مطبعة الهيئة (مؤسسة المطبوعات المصرية) 353هـ.
(2) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، د/ محمد كامل حسين ص68، 69، 75.

أنا كنت مع نوح بما شهد الورى ∴ بحارا وطوفانا على كف قدرة

أنا القطب شيخ الوقت في كل حالة ∴ أنا العبد إبراهيم شيخ الطريقة[1]

ومنها فكرة "العلم بالباطن" وكان ابن العربي يقول بأن العلم الشرعي يوحى به إلى الرسول ﷺ على لسان الملك أما العلم بالباطن عند الولي فهو إرث يرثه الولي من خاتم الأولياء الذي يرثه بدوره من منبع الفيض الروحي جميعه أي الحقيقة المحمدية، ويقول أبو السعود بن أبي العشائر الصوفي المصري المتوفى سنة 644ه "الطلب شغل الظاهر والمطلوب شغل الباطن ولا يستقيم ظاهر إلا بباطن ولا يسلم باطن إلا بظاهر". ونظم ابن الفارض هذه الآراء في قوله:

فخذ علم أعلام الصفَّات بظاهر ∴ المعالم في نفْس بذاك عليمة

وفهم أسامى الذات عنها بباطن ∴ العوالم من روح بذاك مشيرة[2]

ومنها فكرة "الفناء والاتحاد بالذات الإلهية" التي يعبر عنها أحد شعرائهم:

وها أنا أبدي في اتحادي مبدئي ∴ وأنهي انتهائي في تواضع رفعتي

جَلَت في تجليها الوجود لناظري ∴ ففي كل مرئي أراها برؤيتي[3]

ومنها فكرة "وحدة الوجود" التي عبر عنها ابن الصباغ في كلام منثور أورده على سبيل الوعظ والإرشاد أو التوجيه والتعليم، قال:

"إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحى إليه بخاطره؛ وحرس بسره أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القدم؛ فهو إذن للحق جميع معانيه، وصار الحق مواجهه، فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر[4].

---

(1) دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، د/ محمد كامل حسين ص68، 69، 75.
(2) المصدر السابق، ص72، 81.
(3) المصدر السابق نفسه.
(1) الأدب الصوفي في مصر، د/ علي صافي حسين ص 98.

تسربل وقتي فيك فهو مسربل ∴ وأفنيتني عنيّ فعدت مجدداً
وكل بكل الكل وصل محقق ∴ حقائق حقّ في دوام تخلدا
تفرد أمري فانفردت بقربتي ∴ فصرت غريباً في البرية أوحدا[1]

وكما حمل لنا الأدب الصوفي بعض الأفكار التي كانوا يعتقدونها، فإنه قدم لنا وصفاً لبعض المناصب التي تنخرط في سلك التنظيم الصوفي، من ذلك وصف أحوال (المريد)، كما عبر عنه ابن الصباغ بقوله:

"إذا تخلص العبد إلى مقام المعرفة أوحي إليه بخاطره وحرس سره أن يسبح فيه غير خاطر الحق وشاهد القدم فهو إذا منفرد للحق في جميع معانيه وصار الحق مواجهه فهو كل منظور إليه ومقابله على الظاهر، ومن أسكرته نار التوحيد حجبته عن عبارة التجريد، ومن أسكرته أنوار التجريد نظر عن حقائق التوحيد وحياء الموحدين من مولاهم أزال عن قلوبهم سرور المنة وحياء الأولياء من لحظ عظمة ربهم أزال عن قلوبهم سرور الطاعة"[2].

❖❖❖

الحياة الدينية في مصر

"أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علمياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي"[1]، وقد ذكرنا كيف كان العرب الذين وفدوا على مصر في شبه معزل عن المصريين وعلومهم، ولذلك لم

(2) المصدر السابق.
(3) المصدر نفسه، ص186.
(1) فجر الإسلام للاستاذ أحمد أمين ص228 - الطبعة الأولى -.

يهتم عرب مصر في القرن الأول إلا بالدين الإسلامي، فاتخذوا من جامع الفسطاط مكاناً للدروس والمناقشات الدينية، ولسنا في معرض الحديث عن هذه العلوم التي كانت تلقى في مسجد الفسطاط، ولكنا مضطرون إلى الإلمام بها، لأن دراسة الآداب تضطرنا إلى تتبع تطور الحياة العقلية، ورقي النثر الفني لا يتأتى إلا من هذه الدراسات العميقة، والمناقشات العلمية العنيفة، التي تقوم على جهد في الفكر وذخيرة من العلم، كما أن ألوان الحياة العقلية وأنواع العلوم التي كانت تدرس تعيننا على معرفة نوع هذه الكتابات المختلفة وفنون الشعر وتطورها جيلاً بعد جيل.

أولاً- علم القراءات:

ففي مسجد الفسطاط، نرى أول ما درس به كانت علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم، ورواية قراءاته، ورواية الحديث الشريف، وكان للصحابة الذين شهدوا فتح مصر أثر بارز في هذه العلوم الدينية، إذ هم الذين تولوا أمر التدريس في المسجد الجامع، وأول من أقرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن مخمر المغافري[2]، وكل القراءات بمصر رواية عن نافع، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصري المعروف بورش وكان مصرياً صميماً فهو عثمان بن سعيد بن عدي بن غزوان بن داود بن سابق، كان أصل أجداده من الأقباط، ثم اعتنقوا الدين الإسلامي. ولد ورش بمصر سنة 110ه، واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية، ورحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع سنة 155ه[1]، ثم عاد إلى

(2) خطط المقريزي ج4 ص 143.
(1) معجم الأدباء ج5 ص33.

مصر، وإليه انتهت رياسة الإقراء فيها وتوفى سنة 197ه، وساعده في نقل رواية نافع زميل له معاصر، هو سقلاب بن شنينة أبو سعيد المصري[2].

ولكن المقريزي قال إن أبا ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة مولي الملامس الحضرمي كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الخمسين ومائة من الهجرة، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة، ولكن المعروف أن أثر ورش في القراءة أقوى من أي مقرئ آخر. ويحدثنا السيوطي أن عمر بن عبد العزيز أرسل نافعاً إلى مصر ليعلم المصريين، فأقام نافع بمصر مدة طويلة[3].

ومهما يكن من شيء فإن مدرسة نافع قد قوى أمرها في مصر، وتعدد تلاميذ ورش، فمنهم أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو بن يسار المصري الذي لزم ورشاً مدة طويلة، وأتقن عند الأدباء، وخلفه في الإقراء، ولكنه انفرد عن ورش بتغليظ اللام وترقيق الراء، وكان له أثر كبير في مصر والمغرب، حتى أن المصريين والبربر ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبي يعقوب هذا، وقد توفى أبو يعقوب حوالي سنة أربعين ومائتين من الهجرة.

وأخذ الأندلسيون قراءة نافع عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين هجرية[1].

من ذلك كله نستطيع أن تدرك أن المصريين كان لهم أثر واضح

---

(2) حسن المحاضرة ج1 ص277.
(3) المصدر السابق، ص162.
(1) المصدر نفسه، ص278.

في القراءات، وعن المصريين أخذ القراء في الأندلس والمغرب، كما كان للمصريين رأي خاص يختلف بعض الشيء عن قراءة نافع، كالذي ذكرناه عن قراءة أبي يعقوب المصري في تغليظ اللامات وترقيق الراءات.

ثانياً علم الحديث:

وفي الحديث نجد الصحابة الذين وفدوا على مصر يكثرون من روايته، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية للحديث، فقد كان من نجباء الصحابة، ومن المكثرين لروايته[1].

كما كان عبد الله يعرف الكتابة، وكان يكتب كل ما سمعه من رسول الله ﷺ، فاستطاع بذلك أن يحفظ عدداً من الأحاديث كما سمعها من الرسول ﷺ، وكثيراً ما كان يرجع إلى أوراقه عندما يسأل في أمر لا يستطيع أن يجيب عنه.

روي ابن عبد الحكم أن عبد الله قال: "كنا عند رسول الله ﷺ، نكتب ما يقول لا أو نعم[2]".

كما كان لغيره من الصحابة أثر بارز في رواية الحديث وقد أفرد ابن عبد الحكم في آخر كتابه "فتوح مصر" فصلاً خاصاً بالأحاديث النبوية التي رواها المصريون.

وكذلك نجد في كتاب السيوطي "در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة "ذكر هؤلاء الصحابة وما رووه من الأحاديث، واعتمد أصحاب الكتب الستة في الأحاديث على رواية كثير من المصريين،

---

(1) حسن المحاضرة ج1 ص124.
(2) النجوم الزاهرة ج1 ص171.

فسعيد بن عفير ويحيى ابن بكير وعبد الله بن صالح، وغيرهم كانوا من شيوخ البخاري، وكان أحمد ابن يونس ويحيى التميمي وغيرهما من شيوخ مسلم وأبي داود[1] من أعلام الحديث في مصر:

(1) عبد الله بن وهب:

لابد أن نقف عند رجل مصري يعد من أوائل جامعي الحديث، ذلك هو عبد الله بن وهب المصري صاحب كتاب (الجامع في الحديث). وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثاً في مدينة ادفو، ويعد من أقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومتاحف العالم، إن لم يكن أقدمها جميعاً، وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردي الذي عرفت به مصر منذ القدم، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجري. أما مؤلفه، فهو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي بالولاء[2].

وقد شهد ابن وهب هذا العصر الذي ابتدئ فيه تدوين الحديث والفقه والتفسير، فقد كان العلماء قبل ذلك العصر يتكلمون عما حفظوه، وقد يدونون ما سمعوه في صحف مبعثرة متفرقة ولم تكن لهم كتابات مرتبة. ولكن جاء بعض الأئمة والمجتهدين ودونوا ما رأوه وما رووه، فكتب مالك كتابه الموطأ بالمدينة وكتب الأوزاعي على مذهبه بالشام، وصنف ابن إسحق في المغازي، وكتب ابن وهب في مصر كتابه (الجامع في الحديث)، فهو بذلك من أول الذين جمعوا الحديث، والغريب أن هذا الرجل على ما هو عليه من فضل وعلم ليس معروفاً عند كثير من

(1) في الأدب المصري الإسلامي للدكتور/ محمد علي حسن ص38 مطبعة الاعتماد.
(2) ابن خلكان ج1 ص249.

المؤرخين والكتاب وذلك في أغلب الظن لأن "جامعه" كان مفقوداً، وقد يكون هذا الكتاب هو الأثر الوحيد الذي يدلنا على فضل هذا الرجل، ولعل رأي العلماء والمؤرخين في هذا المحدث يتغير بعد أن كشف عن جزء من كتابه، كما نرجو أن تعمل الهيئات العلمية على طبع هذا الكتاب[1].

ولد ابن وهب بمصر في ذي القعدة من سنة أربعين أو خمس وعشرين ومائة من الهجرة، وكان كغيره من متعلمي هذا العصر، يرحل في طلب العلم إلى الحجاز والعراق، فوفد على المدينة سنة ثمان وأربعين ومائة هجرية، وهناك أخذ عن مالك، وما زال يقيم معه، حيناً، ويفترق حيناً آخر، إلى أن توفى مالك سنة 197ه.

ويقول ابن خلكان إن مالكاً كان يكتب إلى ابن وهب: "إلى عبد الله بن وهب المفتي ولم يكن يفعل هذا مع غيره" فهذا يدل على أن مالكاً كان يعترف بفضل ابن وهب ومنزلته فلقبه بالمفتي. ويروى ابن خلكان أيضاً قصة عنه فيقول "كتب الخليفة أبو جعفر المنصور إلى عبد الله بن وهب في قضاء مصر، فخبأ نفسه، ولزم بيته، فاطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوضأ في صحن داره، فقال له "ألا تخرج إلى الناس فتقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله" فرفع له رأسه، وقال "لى هنا انتهى عقلك!! أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء، وأن القضاة يحشرون مع السلاطين، . فإن صَحَّتْ هذه الرواية فهي تحدثنا عن عقيدة ابن وهب وإيمانه.

(1) في الأدب المصري الإسلامي ص 39.

وقيل إن سبب موته أنه قرئ عليه كتاب الأهوال من "جامعه"، فأخذه شيء كالغشي، فحمل إلى داره، فلم يزل كذلك إلى أن قضى نحبه، في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة من الهجرة[1].

أخذ ابن وهب أكثر مادة كتابه عن مصدرين هما: مالك بن أنس وعبد الله بن لهيعة المصري، وليس لنا أن نتحدث عن الإمام مالك لأنه لم يكن مصرياً في شيء، وإن كان مذهبه قد دخل مصر وكثر تلاميذه الذين كانوا يدرسون مذهبه في المسجد الجامع.

وكان ابن وهب من أجل تلاميذه في مصر، وعنه أخذ كثير من المصريين، حتى أن السيوطي حين عقد فصلاً عمن كان بمصر من الفقهاء المالكية، كان يذكر ابن وهب كأستاذ لمعظم هؤلاء الفقهاء، مثل عبد الحكم ابن عبد الله الذي كان أكبر أولاد ابن عبد الحكم وأفقههم، وأجل أصحاب ابن وهب[2].

ولم يكن ابن وهب وحده هو أستاذ المدرسة المالكية في مصر، بل نجد كثيراً غيره، أمثال: أشهب بن عبد العزيز العامري فقيه ديار مصر، وكانت إليه الرياسة بها، وبلغ من العلم درجة كبيرة، حتى قال الشافعي:

"ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه"[3]، وكان ثقة في روايته، حتى قيل إن أشهب ما كان يزيد في سماعه حرفاً واحداً[4].

---

(2) راجع ابن خلكان ج1 ص 249.
(1) حسن المحاضرة ج1 ص 254.
(1) المصدر السابق، ج1 ص 166.
(2) النجوم الزاهرة ج2 ص 175.

وكان أساس المدرسة المالكية هو رواية الموطأ وهذا الكتاب كغيره من الكتب الإسلامية التي ألفت في هذا العصر يقوم على الرواية، ولكن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هي في الموطأ، بل كان يدقق في اختيار الأحاديث، ولعل هذا هو السبب الذي جعل المحدثين جميعاً يثقون به.

أما المصدر الثاني الذي أخذ عنه ابن وهب أكثر مادة كتابه، فهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي[1] ولد سنة ست وتسعين هجرية من أصل عربي، وكان والده لهيعة من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث بمصر[2]، ونشأ ابنه عبد الله محباً للحديث، جامعاً له، فكان يرحل في طلبه[3].

وكان ابن لهيعة يكني أبا خريطة، وذلك أنه كانت له خريطة معلقة في عنقه، فكان يدور بمصر، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم، فإذا رأي شيخاً سأله من لقيت وعمن كتبت[4].

وابن لهيعة هذا تلميذ يزيد بن أبي حبيب، الذي وصفه الليث بن سعد بقوله "هو سيدنا وعالمنا"[5].

وقيل إن يزيد هذا أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحرام والحلال، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن[6].

لهذا كان يزيد بن أبي حبيب أحد الثلاثة الذين جعل عمر بن

---

(3) انظر النووي ج1 ص364، والسمعاني ص 405.
(4) حسن المحاضرة ج1 ص 145.
(5) في الأدب المصري الإسلامي ص 41 : 42.
(6) النجوم الزاهرة ج2 ص 175.
(1) حسن المحاضرة ج1 ص 163.
(2) النجوم الزاهرة ج1 ص 308.

عبد العزيز إليهم الفتيا في مصر، وهم جعفر بن ربيعة وهو عربي، وعبد الله بن أبي جعفر، ويزيد بن أبي حبيب، وهما من الموالي، ولكن العرب أنفوا أن تكون الفتيا إلى الموالي فأجابهم عمر بقوله " ما ذنبي إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعداً، وأنتم لا تسمون"[1].

ولا تقف شهرة يزيد بن أبي حبيب عند الفقه أو الحديث، بل تراه من الذين اعتمد عليهم عبد الرحمن بن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر، والكندي في كتابيه الولاة والقضاة، والطبري في تاريخه وغيرهم، وذلك لكثرة علمه بالفتن والحروب، وخاصة ما يتعلق منها بمصر وشئونها وحكامها، كان يزيد أستاذ ابن لهيعة وأستاذ عالم مصري آخر هو الليث بن سعد، ولكن ابن لهيعة اختلف عن أستاذه ابن أبي حبيب، وعن قرينه الليث، فلم يكن حذراً في قبول الروايات الكثيرة التي كانت تصل إليه، ولم يحتط في إسناد الأحاديث والأخبار إلى الثقات، لهذا قل من يثق بأحاديثه وأخباره، مع كثرة ما نقل عنه.

يقول ابن خلكان:

إن ابن لهيعة كان مكثراً من الحديث والأخبار والرواية، وكان يُقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت، فقيل له في ذلك فقال: ما ذنبي إنما يجيئوني بكتاب يقرؤونه عليَّ ويقومون، ولو سألوني لأخبرتهم أنه ليس من حديثي[2].

وأظن أن هذا هو السبب الذي جعل ابن سعد يقول عنه: "إنه

---

(3) خطط المقريزي ج4 ص143.
(1) ابن خلكان ج1 ص249.

كان ضعيفاً"[1]. ومن يدري لعل هذا الرجل كان سبباً في اختراع هذه الأخبار الكثيرة التي رواها ابن عبد الحكم والكندي وغيرهما، وأخذها عنهما غيرهما من المؤرخين، إذ أن أكثر ما ورد عن مصر مروي عن طريقه.

روى ابن وهب كثيراً عن ابن لهيعة، ولست أدري كيف يأخذ ابن وهب عنه، وهو الذي يدقق في كل رواية. فقد قيل إن ابن وهب روى عن رسول الله ﷺ مائة ألف حديث ما جرح في حديث واحد[2].

ويروي السيوطي أن أول من أدخل المذهب المالكي في مصر هو عثمان بن الحكم الجذامي المتوفى سنة 163 ه.

(2) الليث بن سعد:

لابد لنا من وقفة قصيرة عند عالم مصري شُهد له بالعلم والفقه، حتى قيل عنه إنه إمام أهل مصر في الفقه والحديث، ذلك هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن. لم يكن عربياً أصيلاً في عروبته، ولم يكن مصرياً عريقاً في مصريته، بل كان فارسياً من أصبهان، وكان مولي عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي، ولد الليث في قرية من قرى مصر هي قلقشندة، ويقول الليث إن بعض أهله حدثوه أنه ولد سنة اثنتين وتسعين للهجرة، ويوقن هو أن ولادته كانت سنة أربع وتسعين للهجرة، ولكن السمعاني يقول إنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة[3].

---

(2) الطبقات الكبرى لابن سعد ص204، طبعة لندن سنة 1338هـ.
(3) الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات، ص45 ـ مطبعة بولاق سنة 1907م.
(1) في الأدب المصري الإسلامي ص45.

ويقول السيوطي إنه ولد سنة أربع وتسعين، ويقول غيره إنه ولد سنة ثلاث وتسعين[1]، نشأ بمصر وتثقف على علمائها أمثال يزيد بن أبي حبيب، وجعفر بن ربيعة وخير بن نعيم وغيرهم، ثم لم يقنع بهذا كله، فتراه يطوف ببعض البلدان طلباً للعلم، فذهب إلى مكة للحج سنة ثلاث عشرة ومائة، وهناك أخذ عن نافع مولي عبد الله بن عمر وعطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة وقتادة وغيرهم، وزار بيت المقدس سنة تسع وثلاثين ومائة هجرية، وزار بغداد سنة تسع وخمسين ومائة[2] ففي هذه الزيارات كلها قابل عدداً كبيراً من التابعين وأخذ عنهم الحديث ورووا عنه، ونرى له شأناً آخر من الناحية الفقهية فقد كان الليث فقهياً مبرزاً، حتى أن الشافعي كان يقول "الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به". فهذا حكم إمام من أئمة الفقه الليث بن سعد، كذلك نجد ابن خلكان يروي أن ابن وهب كان يُقرأ عليه مسائل الليث ابن سعد فمرت به مسألة، فقال رجل من الغرباء: أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب هو، والله والذي لا إله إلا الله ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث[3].

ويروي السيوطي أن ابن بكير قال "ما رأيت أحداً أكمل من الليث، كان فقيه النفس، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو،

---

(2) حسن المحاضرة ج1 ص164.
(3) كتاب الولاة للكندي " الليث بن سعد ".
(1) ابن خلكان ج1 ص 438.

ويحفظ الحديث[1] والشعر، حسن المذاكرة"[2].

وقال سعيد بن أيوب: لو أن مالكاً والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ولباع الليث مالكاً فيمن يريد[3].

وكان مالك يقول: حدثني من أرضي من أهل العلم يريد به الليث[4].

ومن تلاميذ الليث: عبد الله بن المبارك وأبو النضر هاشم بن القاسم ويونس بن محمد المؤدب وعبد الله بن وهب وأشهب وأكثر هؤلاء من شيوخ ابن حنبل. وسعيد ابن عفير وعبد الله بن صالح كاتب الليث وعبد الله بن يونس التنيسي وقد روى البخاري عن أكثرهم، كما أخذ عنه قتيبة بن سعد.

من هذا كله نستطيع أن نعرف مكانة الليث بن سعد في نفوس المصريين المعاصرين له، حتى قيل إن القاضي والوالي كانا من تحت أمره ومشورته، لا يقطعان أمراً إلا بعد أن يرى هو فيه ريه، واضطر أحد الشعراء من خصوم الليث إلى أن يرسل إلى الخليفة أبي جعفر المنصور يقول:

لعبد الله عبد الله عندي ∴ نصائح حكتها في السر وحدي

أمير المؤمنين فلا مصرا ∴ فإن أميرها ليث بن سعد

وكان الليث ثرياً كريماً، ومع فقهه وتدينه كان يأخذ بنصيبه

---

(2) في الكواكب السيارة فر ترتيب الزيارة [يحسن القرآن والفقه والنحو والطب والشعر].

(3) حسن المحاضرة ج1 ص164.

(4) كتاب الرحمة الغيثية للعسقلاني ص 6 - طبع بولاق سنة 1301هـ -.

(5) المصدر السابق ص 8.

في الحياة الدنيا التي لم يحرمها الله، وقد كتب مالك إليه يقول " بلغني أنك تأكل الرقاق، وتلبس الرقاق، وتمشي في الأسواق " فأجابه الليث بن سعد: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق...الآية"[1].

وقيل إن مالكاً أهدى إليه صينية فيها تمر، فأعادها مملوءة ذهباً.. كما كان يتخذ لأصحابه الفالوذج ويعمل فيها الدنانير فمن أكل أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر[2].

كان الليث على حظ كبير من المال، وقسط وافر من العلم، وكان يساجل مالكاً بالمراسلة، ويأخذ عليه أموراً لا يراها هو، وقد عثرنا على إحدى هذه الخطابات التي أرسلها الليث إلى مالك مدونة في كتاب (أعلام الموقعين) لابن قيم الجوزية، وفي هذه الرسالة نرى بعض المسائل الفقهية، ولكنا نستطيع أن نتخذ هذه الرسالة مثلاً للكتابة الدينية في هذا العصر[3].

هذا هو إمام مصر الذي آسف الشافعي على فوات لقيّه[4]، ولو كان تلاميذ هذا الإمام عنوا بعلمه وفقهه لكان له شأن آخر غير هذا الشأن، ولما أهمله الفقهاء وعلماء المسلمين لا سيما هؤلاء المصريين الذين كان لهم أن يفخروا بعالمهم، ويحتفظوا بعلمه، ولكن كانت المالكية مستأثرة بنفوس المصريين أو كما قال الليث:

---

(1) النجوم الزاهرة ج2 ص82.
(2) ابن خلكان ج1 ص438.
(3) في الأدب المصري الإسلامي ص47 : 48.
(4) ابن خلكان ج1 ص 438.

"إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، ثم إن الليث لم يصنف من الكتب كغيره من الفقهاء، ولم يدون أصحابه المسائل عنه ولهذا قال الشافعي ضيعه أصحابه"[1].

ومن أكبر تلاميذ الليث بن سعد، إسحق بن الفرات صاحب مالك وقاضي مصر والذي قال الشافعي عنه: "ما رأيت بمصر أعلم منه باختلاف الناس"[2].

وقال ابن عُليه: "ما رأيت ببلدكم أحداً يحسن العلم إلا ابن الفرات"[3]، وتوفى سنة 204هـ.

وكذلك إسحق بن بكر بن مضر المصري وكان يجلس في حلقة الليث ويفتي بقوله وتوفى سنة 218هـ[4]، وأحمد ابن يونس بن عبد الأعلى الصدفي وكان وكيل الليث ومحدثاً عنه[5].

ونستطيع أن نقول إن أكثر فقهاء مصر الذين عاصروا الليث أمثال عبد الله بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وأولاده قد تفقهوا بالليث بن سعد ولكنهم كانوا يؤثرون مذهب مالك على مذهبه.

❖❖❖

المدارس الدينية

- المدرسة الشافعية:

---

(1) الرحمة الغيثية للعسقلاني ص 9.
(2) حسن المحاضرة ص 166.
(3) الكندي ص 393.
(4) حسن المحاضرة ص167.
(5) الكواكب السيارة ص 83.

وفد الشافعي على مصر وأقام بها، فاجتمع له المصريون، ومنهم كثير من أنصار مالك مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره، فانقسم المصريون بعد أن كادوا يجمعون على آراء مالك، فلما وجد بعض وجوه المصريين اختلاف التعاليم الشافعية عن المالكية رموا الشافعي بأشياء كثيرة، من ذلك ما يرويه ابن خلكان عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه قال " كنت أتردد إلى الشافعي، فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي- وكان على مذهب الإمام مالك- فقالوا يا أبا محمد، إن محمداً ينقطع إلى هذا الرجل، ويتردد إليه، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه فجعل يلاطفهم، ويقول هو حدث، ويحب النظر في اختلاف أقاويل الناس ومعرفة ذلك، ويقول لي في السر الزم هذا الرجل"[1].

ويحدثنا الكندي أن عيسى بن المنكدر- الذي تولى قضاء مصر من سنة 212 إلى سنة 214هـ- كان يصيح بالشافعي ويقول له: "يا كذا دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد، ورأينا واحد، ففرقت بيننا وألقيت بيننا الشر!! فرّق الله بين روحك وجسمك"[2].

ويحدثنا ياقوت أن رجلاً من أتباع مالك يسمى فتيان كان يناظر الشافعي كثيراً فيظهر الشافعي عليه، فضاق فتيان بذلك، وشتم الشافعي شتماً قبيحاً، فلم يرد عليه الشافعي، وتعصب قوم لفتيان. فقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من أصحابه، وبقي وحده، فهجموا

(1) ابن خلكان ج1 ص 456.
(2) الكندي ص 438.

عليه وضربوه ضرباً مبرحاً، فحمل إلى منزله ولم يزل فيه عليلاً حتى مات[1].

وهكذا انقسم المصريون بين فقه المالكية والشافعية، واشتد النزاع بين المدرستين، حتى أدى الأمر إلى وقوع مناقشات عنيفة بل إلى قتال أحياناً، فقد جاء في كتاب المغرب"0

وفي سنة 326ه عاد أصحاب مالك والشافعي إلى القتال في المسجد الجامع العتيق، وكان في الجامع للمالكيين خمس عشرة حلقة، وللشافعية مثلها، ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلق، فلما زاد قتالهم أرسل الإخشيد ونزع حصرهم ومساندهم وأغلق الجامع، وكان يفتح في أوقات الصلوات، ثم سئل الإخشيد فيهم فردهم"[2].

من ذلك نستطيع أن نقول إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تنافس المدرسة المالكية بمصر، وقد هيأت الشافعية جواً جديداً في العلم لم تعهده مصر من قبل، إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى وأن تناظرها، فابتدأت أذهان المصريين تتنبه لهذه المجادلات العنيفة والمناظرات الشيقة.

ونحن إذا قرأنا كتاب الرسالة الذي بين أيدينا وهو كما يقول المؤرخون مكتوب في مصر، نجد الشافعي يستعمل فيه أحياناً طريقة المناظرة، فيتخيل شخصاً يعارضه في تفسير نص أو فتوى، فيجيبه ويفند آراءه حتى يلزمه الحجة، ويقنعه برأيه وطريقة المناظرة هذه لم تعرف

---

(1) معجم الأدباء ج6 ص 395.
(2) المغرب في أخبار المغرب ج4 ص 24.

قبله في مصر، ولم نجد لها آثراً قبل الشافعي. بل هي من آثار دراسة الشافعي في العراق والحجاز، حيث كثر المتكلمون وأصحاب المذاهب، وتشعبت الآراء، وكثر الجدل بين الطوائف الإسلامية وغيرها من المذاهب الدينية الأخرى، كمناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني. والشافعي وابن علية، ونجد الخلفاء العباسيين ووزراءهم يحضرون هذه المناظرات ويقيمونها عندهم.

أما في مصر فقد رأينا كيف كاد المصريون يعتنقون مذهباً واحداً، ولم تكن بمصر مناظرات كثيرة تشغل العلماء ورجال الدولة كما كان في العراق، ونرى بعض أمراء مصر لا يحبون أن تقام مناظرات بين العلماء أمامهم، فقد قيل إنه تنازع أبو بكر بن الحداد الفقيه وبكر بن محمد القاضي المالكي وعبد الله بن الوليد، وجرى بينهم لقط كثير في حضرة الإخشيد، فلما انصرفوا قال " يجري هذا في مجلسي كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم"[1].

ومهما يكن من شيء فالشافعي هو الذي شجع روح المناظرة العلمية في مصر، فكان يناظر بعض المصريين ليستفيد من علمهم، كالذي يرويه السيوطي أن الشافعي كان يقول للربيع بن سليمان يا ربيع أدع لي سرجاً- يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه- فيأتي به، فيذاكره ويناظره، ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعي يا ربيع، نحتاج

(1) المغرب ص 31.

أن نستأنف طلب العلم[1].

كما كان يناظر مخالفيه من الفقهاء، كالذي يرويه صاحب تاريخ بغداد أن صالح بن أبي صالح كاتب الليث بن سعد قال: كنا مع الشافعي في مجلسه فجعل يتكلم في تثبيت خبر الواحد عن ﷺ، فكتبناه وذهبنا به إلى إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن عُلَيّة- وكان أحد المتكلمين وممن يقول بخلق القرآن وكانت له مع الشافعي مناظرات ببغداد، وكان مجلسه بمصر عند باب الضوال- فلما قرأنا عليه جعل يحتج لإبطاله فكتبنا ما قال ابن علية، وذهبنا به إلى الشافعي فنقضه الشافعي، ثم كتبنا ما قال الشافعي، وذهبنا به إلى ابن علية، فجعل يحتج بإبطال ما قال الشافعي فكتبناه، ثم جئنا به إلى الشافعي فقال إن ابن علية ضال قد جلس عند باب الضوال يضل الناس[2].

وكان من أثر مناظرات الشافعي مع ابن علية أن وضع ابن علية وعيسى ابن أبان كتاباً عن الشافعي والرد عليه، ورد عليهما داود بن علي الأصبهاني[3].

وهكذا أخذ المصريون يؤلفون كتباً في المذاهب والدفاع عنها، وأخذوا عن الشافعي طريقته في الكتابة العلمية إذ كان يأتي بالآية أو الحديث ويشرحه، ثم يستنبط منه ما ينتهي إليه رأيه، وكان يختار من الألفاظ الجياد الدقيقة ما تلائم المعاني. وجاء تلاميذ الشافعي فحولوا العبارة إلى نصوص علمية، محذوفة السند، كالتي نراها في مختصر

(1) بغية الدعاة للسيوطي ص 252.
(2) تاريخ بغداد ج6 ص 2.
(3) شرحه ج6 ص 22.

المزني مثلاً، فقد أخذ كلام الشافعي وفهمه وكتبه على طريقة أستاذه دون أن يأتي بالأسانيد، فوجدت بذلك روح الكتابة عند المؤلفين المصريين.

وكان كتاب (الأم) مثالاً يحتذيه رجال المدرسة الشافعية في كتاباتهم، وهذا الكتاب ليس كتاباً واحداً، بل هو مقسم إلى عدة كتب، وفي كل كتاب موضوع خاص، وكما قلت كان يأتي بالآية أو الحديث فيفسره، ويعلق عليه بجمل قصيرة متينة التركيب والأسلوب.

وفي مقدمة الرسالة نجد الشافعي يبدأ قوله بالحمد، ويكرر في ذلك، وهذه الطريقة ليست مصرية، بل هي طريقة عبد الحميد الكاتب واستعملها كتّاب العراق في رسائلهم المطولة ثم نراه بعد ذلك يستطرد في الموضوع الواحد، فبينما هو يحمد الله يذكر آية أو نصاً ويفسرها، ثم يعود إلى الحمد مرة أخرى، ويكرره بالعطف، وقد أكثر من الاستطراد وأطال، ثم يصلي ويسلم على النبي في الديباجة، وهذه الصلاة وذلك التسليم لم يوجدا في الرسائل والكتب، حتى جاء الرشيد فاستعمل ذلك في رسائله، حتى عُدّت من مناقب الرشيد وقد اتبعها الكتاب بعده.

والشافعي كان فصيحاً في تعبيراته وألفاظه، فكان لذلك أثره في تلاميذه الذين أخذوا ما كتب ورووا عنه ما قال حتى اختلف الكتّاب أخيراً في كتاب (الأم)، أهو للشافعي أم للبويطي تلميذ الشافعي[1].

(1) راجع بحث الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأم - مطبعة حجازي بمصر سنة 1934م.

والـذي أراه أن تلاميـذ الشـافعي رووا مـا في الأم عنـه، وجمـع البويطي ما رواه عن الشافعي، وسماه الأم، فالشافعي نفسه- في أغلب الظن- لم يسم كتابه الأم. بل كان يملي على تلاميذه دروساً مقسمة إلى الكتب أو النصوص التي يتكون منها الأم فسماها البويطي الأم.

كذلك كان الأمر في كتاب الأصول لأبي حنيفة، فإن أبا الحسن الشيباني هو الذي جمع ما في الأصول وسماه بهذا الاسم، ولكنا نلاحظ أن الشافعي كتب بعض فصول الأم بنفسه. وروي الربيع بعضها عنه وإذن فالشافعي هو صاحب الكتاب وتلاميذه هم الذين جمعوه ورتبوه حتى أخذ مظهره الحالي.

كما أثر الشافعي في المصريين تأثيراً محسوساً، كذلك نراه يتأثر بالحياة المصرية نفسها، فالشافعي كان من مدرسة الحديث أي من تلاميذ مالك، وقد هاجم مدرسة الرأي- أي مذهب أبي حنيفة- أثناء زيارته للعراق، ولكننا نجده في مصر يهاجم مدرسة الحديث ممثلة في مذهب مالك، ويكون مذهبه الجديد في مصر.

كذلك نراه قد كتب الرسالة مرتين كتبها أولاً في العراق، ثم أعاد كتابتها في مصر بعد أن غير فيها بعض التغييرات التي تلائم الحياة المصرية، وكذلك نقول عن مذهبه فقد كتبه مرتين، كتب في العراق مذهبه القديم، وكتب في مصر مذهبه الجديد، ويستطيع رجال الفقه أن يفرقوا بين المذهبين لو قدر للمذهب القديم البقاء.

أما تلاميذ الشافعي الذي كان لهم الفضل في حفظ مذهبه

ونشره فقد عدهم الحافظ السلفي في قصيدة نظمها هي[1]:

فعليك يا من رام دين محمد ∴ بالشافعي وما تلاه وقالا

أعني محمداً بن إدريس الذي ∴ فاق البرية رتبة وكمالاً

فأجلهم شيخ الأئمة أحمد[2] ∴ فيما رواه من الحديث وقالا

والأعيني[3] ويونس الصدفي[4] والـ ∴ مزني آخر[5] من إليه مالاً

وكذاك حرملة[6] بن يحيى والـ ∴ سيوطي[7] الذي قد أعجز الإشكالا

واذكر أبا ثور[8] فقيه عراقه ∴ وفريدها والحارث البقالا

---

(1) الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات ص 151.

(2) يقصد الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف.

(3) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بن أعين بن ليث ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة وتوفي سنة 268 سمع من ابن وهب وأشهب ثم صحب الشافعي وتفقه به وحمل في محنة خلق القرآن إلى القاضي بن أبي دؤاد ببغداد ثم رد إلى مصر. وانتهت إليه رياسة المالكية بعد وفاة أبيه والشافعي وله كتاب السنن على مذهب الشافعي.

(4) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفي المصري روى عن ابن عيينة وتفقه على الشافعي وقرأ على ورش وتصدر للإقراء والفقه ولد سنة 17. ومات سنة 264، وروى عنه مسلم والنسائي وابن ماجة وكان الشافعي يقول عنه ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى [ابن خلكان ج2 ص 418].

(5) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني، يعتبر إمام الشافعيين وأعرفهم بطرق الشافعي وفتاويه، صنف كتباً كثيرة في مذهب الإمام الشافعي، منها الجامع الكبير والصغير والمختصر ومختصر المختصر والمنثور والمسائل المعتبرة وغيرها، وكتابه المختصر أصل الكتب المصنفة في مذهب الإمام الشافعي، وعلى مثاله كتب المؤلفون أو فسروا ما فيه. (ابن خلكان ج1 ص 71، والفهرست ص 298-299).
ويقول السيوطي: إن الشافعي قال في المزني إنه لو ناظر الشيطان لغلبه (حسن المحاضرة، ج1، ص168) ولد سنة 175ه وتوفي سنة 264ه.

(6) حرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبي أبو حفص المصري كان له مذهب لنفسه وصنف المبسوط والمختصر وروي عن مسلم وابن ماجة ولد سنة 16. ومات سنة 343 [حسن المحاضرة ج1 ص168].

(7) أبو يعقوب يوسف بن يحيى المصري البويطي سمع من عبد الله بن وهب والشافعي وسمع منه كثيرون منهم أبو إسماعيل الترمذي وإبراهيم بن إسحق الحربي وفي تاريخ بغداد = =أن الشافعي لما مرض مرضه الذي مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطي في مجلس الشافعي فاحتكما إلى أبي بكر الحميدي فقال لهما إنه سمع الشافعي يقول ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف بني يحيى [يعني البويطي] وليس أحد من أصحابي أعلم منه.
وجلس البويطي في مجلس الشافعي [ابن خلكان ج2 ص 346]. وكان ابن أبي الليث الحنفي قاضي مصر يحسده، فسعى به إلى الواثق بالله أيام محنة خلق القرآن فأمر بحمله إلى بغداد مغلولاً مقيداً وأريد منه القول بذلك فامتنع فحبس في بغداد إلى أن مات في القيد والسجن يوم الجمعة من رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين [حسن المحاضرة ج1 ص167] . وللبويطي كتاب "المختصر الكبير والصغير وكتاب الفرائض" [ابن النديم ص 298].

(1) أبو ثور إبراهيم بن خلكان أبي اليمان الكلبي الفقيه البغدادي صاحب الإمام الشافعي وناقل الأقوال القديمة عنه له الكتب المصنفة في الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأي حتى قدم الشافعي العراق فاختلف إليه واتبعه ولكنه خالفه في أشياء وأحدث لنفسه مذهباً اشتقه من مذاهب الشافعي وله مبسوط على ترتيب كتب الشافعي وأكثر أهل أذربيجان وأرمينية يتفقهون على مذهبه [الفهرست ص 297] وتوفي سنة 240هـ.

ثـــم الربيعـــان[1] اللـــذان تفننـــا فـــي فقـــه وتحمـــلا الأثقـــالا
والزعفرانـــي[2] الصـــدوق ورهطـــه فـــي كـــل قطـــر واعـــرف الأبطـــال[3]

وأول قاضي شافعي ولى مصر هو أبو زرعة محمد بن عثمان بن إبراهيم الثقفي ولى القضاء سنة 284هـ ولما عزل رجع إلى دمشق، وكان الغالب على أهلها قول الأوزاعي، فأبو زرعة هو الذي أدخل مذهب الشافعي دمشق، وتبعه من بعده كثير من القضاة[4]، وقيل إن أبا زرعة شرط لمن يحفظ مختصر المزني مائة دينار يهبها له[5].

وهناك قاضٍ أخر كان له أثره في الأدب والفقه هو أبو عبيد على بن الحسين بن حرب المعروف بحربويه وهو من أهل بغداد ودخل مصر في شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين من الهجرة وظل قاضياً على مصر إلى أن عزل سنة إحدى عشرة وثلثمائة، فخرج من مصر إلى بغداد حيث توفى سنة تسع عشرة

---

(2) إلى التفرقة بين الربيع المرادى والربيع الجيزى في بحثه عن كتاب الأم ص73 هما الربيع بن سليمان المرادى والربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى أما الربيع المرادى فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادى المؤذن المصري وهو الذي روى أكثر كتب الشافعي وقال الشافعي في حقه (الربيع راويتي) [ابن خلكان ج1 ص184] وكان الربيع المرادى أقدم أصحاب الشافعي بمصر صحبة وأشهرهم محبة له [الكواكب السيارة ص122] روى عنه أصحاب السنن الأربعة والطحاوى وأبو زرعة وغيرهم وكان يملى الحديث بجامع ابن طولون وهو أول من أملى به وتوفى سنة 270هـ [حسن المحاضرة ج1 ص196].
أما الربيع الجيزى فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدى الجيزى صاحب الإمام الشافعي ولكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن عبد الله بن عبد الحكم وروى عنه أبو داود والنسائي وغيرهما وتوفى سنة 256هـ بالجيزة وهو الذي ينسب إليه جمع الأم وترتيبه بعد البويطى ونلاحظ أن اسم الربيع تكرر كثيراً في كتاب الأم فيلتبس الأمر على القارئ مَن من الربيعين هو المقصود وقد وفق الأستاذ زكى مبارك.
(3) أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح روى المبسوط عن الشافعي على ترتيب ما رواه الربيع وخالف في شيء يسير ولذا لا يعتمد عليه الفقهاء بل يعتمدون على ما رواه الربيع وقد ضاع أكثر كتب الزعفرانى وتوفى سنة 260هـ [الفهرست ص297].
(4) راجع بالتفصيل في الأدب المصري الإسلامي ص57 : 59.
(5) الكندي القضاة والولاة ص523 ورفع الأمر عن قضاة مصر لابن حجر - نسخة خطية بدار الكتب المصرية
(6) تاريخ الإسلام الذهبي : نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

وثلثمائة من الهجرة. حدث عن النسائي، وتفقه على أبي ثور صاحب الشافعي، وحدث في زمن ولايته، فلما صرف أملى على المصريين وكتبوا عنه مجالس.

وروى عنه أبو جعفر الطحاوي وأبو بشر الدولابي، وكان له مركز قيم في مصر حتى أنهم أخذوا أقواله أمثالاً كقوله "إن البغاث بأرضكم يستنسر" قال الطحاوي كنت أذكر عنده ابن أبي عمران الحنفي فقال لي "إلى كم تقول ابن أبي عمران، قد رأيت هذا الرجل بالعراق، إن البغاث بأرضكم تستنسر". قال فصارت هذه الكلمة بمصر مثلاً[1].

وقال الطحاوي أيضا كان أبو عبيد يذاكرني بالمسائل، فأجبته يوما في مسألة، فقال لي ما هذا قول أبي حنيفة، فقلت له أيها القاضي أو كلما قاله أبو حنيفة أقول، قال ما ظننتك إلا مقلداً، فقلت له: وهل يقلد إلا عصى فقال لي: أو غبي، فصارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلاً[2].

وكانت توقيعات أبي عبيد تخرج معنونة مختومة وكتبت بمصر ألفاظه، وجمعت توقيعاته وكانت محشوة فقها وبلاغة[3] ولكن فقدت كل هذه التوقيعات ولم يبق منها شيء.

- المدرسة الحنفية:

وضع الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه متأثراً بما كان في العراق

---

(1) الكندي ص529.
(2) المصدر السابق، ص528.
(3) رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر.

من مذاهب المتكلمين وأهل الرأي، وقد رأينا المصريين لا يقبلون من المذاهب والآراء إلا ما كان صادراً من المدينة أو مكة، فلا نجد مصريين اهتموا كثيراً بمذهب أبي حنيفة في أول الأمر، إنما نقل قاض تولى مصر ممن دان بمذهب أبي حنيفة هو إسماعيل بن اليسع الكندي[1] الذي ولى سنة 164ه، وقد كرهه المصريون لأنه كان يذهب مذهب أبي حنيفة، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب[2] حتى أن الليث بن سعد كتب إلى الخليفة يطلب عزل هذا القاضي، ويقول: "إنك وليتنا رجلاً يكيد سنة رسول الله ﷺ، بين أظهرنا، مع إنا ما علمناه في الدينار والدرهم إلا خيراً" فاضطر الخليفة إلى عزل القاضي[3].

وأشهر قضاة مصر الحنفيين في ذلك الوقت، هو القاضي بكار بن قتيبة بن عبيد بن أبي برذعة من نسل ابن أبي بكرة الثقفي مولي رسول الله ﷺ. ولد بكار بمدينة البصرة وأخذ الفقه عن هلال بن يحي، وعيسى ابن أبان وغيرهما من مشايخ البصرة، وروي عنه أبو داود السجستاني، وابن خزيمة، وأبو عوانه وأكثر عنه الإمام الطحاوي فقيه الحنفية بمصر وغيرهم. ولى قضاء مصر من قبل المتوكل، فدخلها سنة ست وأربعين ومائتين من الهجرة، وكان يحدث في المسجد الجامع، وكثيراً ما كان أحمد ابن طولون أمير مصر يجيء إلى بكار وهو على الحديث فما يشعر به بكار إلا وهو جالس إلى جنبه[4].

---

(1) ذكر في حسن المحاضرة ج1 ص263 إسماعيل بن سميع.
(2) الكندي ص 571.
(3) تاريخ الإسلام للذهبي.
(1) رفع الإصر.

ويذكر ابن حجر عن ابن زولاق أنه كان لبكار اتساع في العلم والمناظرة، ولما رأي مختصر المزني، وما فيه من الرد على أبي حنيفة شرع هو في الرد على الشافعي، فقال لشاهدين من شهوده أذهبا إلى المزني فقولا له سمعت الشافعي يقول ما في هذا الكتاب، فمضيا وسمعا المختصر كله من المزني، وسألاه عما إذا كان هذا كلام الشافعي، فرد بالإيجاب، فعادا إلى بكار فأخبراه بذلك، فقال:

الآن استقام لنا أن نقول قال الشافعي ثم صنف الرد المذكور[1].

وكان بكار يشتهي أن يسمع كلام المزني، فاجتمعا يوماً في جنازة، فأشار بكار إلى أبي جعفر التل- وكان حنفياً أيضاً- أن يسأل المزني عن مسألة، فقال التل: "ما رأيت أعجب من أصحابنا الشافعيين، لهم أحاديث في تحريم قليل النبذ، ولنا أحاديث في تحليله فمن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا؟ فقال المزني: "ليس يخلو أن يكون أحاديثكم قبل أحاديثنا أو بعدها، فإن كانت قبلها فهكذا نقول إنها كانت محله ثم حرمت، فما نحتاج إلى أحاديثكم، وإن كانت أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقول أحد أنها كانت حلالاً ثم صارت محرمة ثم حللت!! فأعجب بكار بقول المزني، وقال سبحان الله أن يكون كلام أدق من الشعر فهو هذا[2] وكان بكار يخالف أصحابه في تحليل قليل النبذ ويذهب إلى تحريمه.

ظل بكار قاضياً على مصر، ويحدث المصريين بمذهب أبي

---

(2) شرحه.
(3) الكندي ص 511.

حنيفة حتى دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق ولعنه، فرفض بكار فحبسه ابن طولون، ولما طال حبسه طلب أصحاب الحديث إلى الأمير أن يأذن لهم في السماع منه، فأذن لهم، فكان بكار يحدثهم من طاق في السجن إلى أن توفى سنة 270ه.

أما الطحاوي فهو يعد إمام المصريين، في مذهب الحنفية لكثرة تلاميذه وخصب نتاجه، ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين من الهجرة، وصحب المزني الشافعي وتفقه به ثم ترك مذهب الشافعي وصار حنفياً، وكان كاتباً للقاضي بكار، وسمع الحديث منه ومن خلق من المصريين، ومن الغرباء القادمين، وتوفى سنة 321ه، بعد أن ترك عدة كتب في الفقه، أولع الناس بها لا سيما كتابه (المختصر في الفقه) الذي وضع له الفقهاء شروحها عدة.

واشتد تنافس المذاهب في مصر فإذا قلد قاض شافعي كان لأصحاب المذاهب الأخرى، كالقاضي إسماعيل بن عبد الواحد المقدسي الذي ولي سنة 321ه فقد تحدث مع الأمير تكين فبعث صاحب الشرطة فأقام من كان بالجامع الكبير من المالكيين والحنفيين[1].

ويروي ابن حجر عن ابن زولاق أن الإخشيدية كلها كانت تكره ابن الحداد الفقيه لكراهتهم في الشافعية[2]. وأمر القاضي الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعي وأمر بنزع حصرهم[3].

---

(1) الكندي ص 544.
(2) رفع الإصر، والكندي ص 555.
(1) الكندي ص 469.

وروى الكندي أن القاضي ابن أبي الليث انتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعي ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد ومدحه الشاعر الحسين الجمل الأكبر بذلك[1].

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحركة الدينية بمصر كانت حركة كبيرة قوية، وأخرجت مصر عدداً كبيراً من القراء والمحدثين والفقهاء[2].

❖❖❖

العصر الحديث: الروح الإسلامية في شعر شاعر النيل

(حافظ إبراهيم)

تمهيد:

إن الدين فطرى في النفس الإنسانية، فهو ينشأ مع الإنسان، منذ طفولته، فيمتزج بكيانه، ويسري في عروقه ويتغلغل فى أعماقه، ويبعث فيها ضياء الحق والحقيقة، وأنوار الحب والفضيلة، ويحيلها إلى واحة من الطهر والصفاء.

تلك هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها. وإذا ما توفر لهذه الفطرة نفس شاعرة، ورُوحٌ مُلْهَمة؛ سمت العاطفة الدينية، وأضفت على الشعر ملامحها.

والآداب العالمية كلها لا تخلو من الشعر الديني... فإذا ما رجعنا

---

(2) الكندي ص 45.
(3) في الأدب المصري الإسلامي ص61 : 64.

إلى نشأة الآداب عند مختلف الأمم وجدنا أن العاطفة الدينية كانت من أقوى العوامل الفعالة في النشأة ثم ظلت من أقوى العوامل كذلك في نماء الأدب وتوجيه جزء كبير منه لإرشاد الإنسانية وتوجيهها إلى سلوك الطريق المستقيم طوال العمر.[1]

ففي الأدب الألماني... نجد أصداء العهد القديم فقد أثبت رجال الأدب الألماني تأثر "جيته" بسفر أيوب في عمله الأدبي الخالد "فوست".[2]

وكذلك في الأدب الإيطالي يكفي أن نشير إلى الكوميديا الإلهية "لدانتي" وكان صاحب فلسفة في الهداية والإيمان. فالعقل عنده مرشد يهديه إلى الطريق المستقيم ولكنه يضل إن لم يسر في حدود الدين ... وتعاليم الكنيسة.

وإذا ما رجعنا إلى الأدب الفرنسي وجدنا شعراء كثيرين قد تأثروا بالنزعة الدينية ... وكانت لأشعارهم آثار بعيدة المدى في الحياة العامة[3].

وهذا ما نجده عند حسان بن ثابت – شاعر الرسول ﷺ فقد تولى الدفاع عنه وخاض الكثير من المعارك هو وإخوانه ضد شعراء المشركين ومعسكر الكفر.

فقد اتخذ الرسول ﷺ من الشعر وسيلة للدفاع عن الإسلام وذلك حين قيض حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة. وهم من

---

(1) العامل الديني في الشعر المصري الحديث للدكتور/ سعد الدين محمد الجيزاوي ص60. دار الفكر العربي، مصر.
(2) قصة الأدب في العالم، تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، جـ1/98، الطبعة الثانية، 2002م، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
(3) العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث للدكتور سعد الدين محمد الجيزاوى، ص 67.

شعراء المدينة في ذلك الوقت للدفاع عن الإسلام بشعرهم وقال حين قام حسان لهم "هجاهم حسان فشفى واشتفى".[1]

وجاء قوله لحسان أيضاً "قل وروح القدس معك."[2]

وقد ظل هذا التيار الديني في الشعر العربي، يعرف طريقه، ويؤدى رسالته، عبر العصور الأدبية عامة.

هذا، وقد تجلّى هذا الشعور الدينى فى العصر الحديث فى شعر كثير من شعرائه، وكان الدافع الحقيقي وراء دعوتهم إلى الوقوف في وجه أعداء الأمة الإسلامية؛ وحرصهم على بيان عظمة الإسلام وعدل حكامه الأوائل، والدعوة إلى توحيد الأمة، والإشادة برجال الدين والمصلحين من رواد هذا العصر مستمدين من القرآن والحديث، وسير الخلفاء والصالحين والمصلحين؛ زادهم ومادتهم.

وقد كان من هؤلاء الشعراء فى هذا العصر؛ بل على رأسهم جميعاً الشاعر حافظ إبراهيم الذى وقع اختيارنا عليه محاولين البحث عن الروح الإسلامية في شعره. اذ لم يكن حافظ شاعر مصر وحدها بل كان شاعر العروبة والإسلام، فكان فؤادها الخافق ولسانها الصادق فهو يدرك أن ماضي مصر وحاضرها ومستقبلها جزء لا يتجزأ من الأمس واليوم والغد العربي والإسلامي المشرق.

والعروبة عند حافظ تكاد تكون هي الإسلام؛ ولسان العروبة الناطق هو القرآن، أو قل القرآن الناطق بلسان العرب "بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ

---

(1) راجع صحيح مسلم جـ2/ 1034.
(2) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص17.

مُبِينٍ"[1].

وهذا كله يجعلنا نقول:

إن قضية العروبة في شعر حافظ ومعاصريه لم تكن منفصلة عن قضية الإسلام، فالوطن العربي هو قلب العالم الإسلامي بوصفه مهبط القرآن الكريم ومنه انتشر الإسلام في ربوع الدنيا. فهو منبت الحضارة الإسلامية وحامل مشعلها.

ولذا عبر حافظ عن إحساسه المتوقد بالتراث العربي في الدين والدولة والحضارة، وتبدى وقوف حافظ إلى جانب الخلافة العثمانية فهي الجامعة لشمل المسلمين، والخليفة هو الممثل لدولة الخلافة التي تقاتل من أجل الدفاع عن الإسلام والمسلمين وإعلاء كلمة الدين. فكثيراً ما نجده يهنئ السلطان عبد الحميد بمناسبة جلوسه على عرش الخلافة، وشعوره بالرضا وافتخاره بكل ما تقوم به دولة الخلافة العثمانية.

"فالنزعة الإسلامية التي رأيناها واضحة في كُتاب العصر وقادته ومفكريه. نستطيع أن نتتبعها في الشعر فنجدها في مثل هذا الوضوح. فليس بين الشعراء المعاصرين وقتذاك، على اختلافهم وتباين نزعاتهم؛ من يخلو ديوانه من شعر في مدح الخليفة التركي والإشادة بفضله على المسلمين، وحرصه على إعلاء كلمة الدين، وليس فيهم من تخلف عن المشاركة بشعره في حروب تركيا وأحداثها الجسام"[1].

ولا غرابة "فلقد كانت النزعة الإسلامية غالبة على العصبية

---

(1) سورة الشعراء، الآية 19.
(1) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. للدكتور محمد محمد حسين، جـ11/1، مكتبة الآداب.

الجنسية والرابطة القومية في مصر إلى أوائل القرن العشرين ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة في الاعتراف بسلطة الخليفة التركي"[2]

ولا شك أن حافظ إبراهيم يأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء الذين تتجلى الروح الإسلامية فى أشعارهم. وهو وإن كان قد أسهم مع شوقي في إحياء دولة الشعر والمحافظة عليها وقتذاك – مع تميز شوقي بالزعامة لأسباب معروفة – فإنه قد امتاز عن شوقي بنشأته البسيطة، وحياته الشعبية اللتين جعلتاه أقرب إلى روح الشعب ومشاعره، وأقدر على تصويري آلامه التي أحس بها وشاركهم فيها"[3].

ومن ثمّ كانت النزعة الإسلامية واضحة في قصيدته العُمرية التي قصرها على عمر بن الخطاب وأعماله، كما تبدو في شعر كثير له نظمه في الخلافة العثمانية، إذ كان المسلمون يتجهون إليها في أول القرن كما يتجهون إلى مكة، فهذه قلب الإسلام الخافق وتلك سنده الذي يذود عنه بالسلاح"[4].

وسوف يكون تناولنا للروح الإسلامية في شعر شاعر النيل "حافظ إبراهيم" من خلال المحاور الآتية:

أولاً - نشأته الدينية وثقافته الإسلامية وأثرهما في شعره.

ثانياً- أبرز القضايا التي تناولها في شعره الإسلامي:

1- الحاكم الإسلامى وما ينبغى أن يتوفر فيه من قيم.

---

(2) المرجع السابق، جـ1/ 1.
(3) شعراء الوطنية في مصر، تأليف عبد الرحمن الرافعي، ص122.
(4) الأدب العربي المعاصر في مصر، للدكتور شوقي ضيف، ص 109، دار المعارف، الطبعة التاسعة.

2- الخلافة الإسلامية وأثرها (الخلافة العثمانية نموذجا).

3- وحدة الصف العربى وتوثيق الروابط بين الأقطار الإسلامية.

4- الاحتفاء بالشعائر والمناسبات الدينية، وتقدير الدعاة والمصلحين من أبناء الأمة الإسلامية.

❖❖❖

أولا- نشأته الدينية وثقافته الإسلامية وأثرهما في شعره:

هو محمد حافظ ابن المهندس إبراهيم فهمي، أحد المهندسين المصريين الخلّص المشرفين على قناطر ديروط، الذى رزق بابنه حافظ وهو يقيم في "ذهبية" كانت راسية على شاطئ النيل سنة 1872م .. أما أمه فهي السيدة "هانم بنت أحمد البورصه لي" من أسرة تركية محافظة. تسكن حي المغربلين، أحد الأحياء الشعبية القديمة بمدينة القاهرة...، وبذلك اجتمع في حافظ دمان، دم مصري صميم مستمد من والده، ودم تركي نقي من والدته، ومن مجموع خصائص كلا الدماءين وتفاعلهما في نفس حافظ وتكوينه تكونت شخصيته وبرزت خصائصه ومميزاته.[1]

ويعلق المرحوم الأستاذ أحمد أمين علي ولادة حافظ على صفحة النيل، بأنه :

---

(1) راجع ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه، أحمد أمين – أحمد الزين- إبراهيم الأبياري. المقدمة ص18: 19، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987، الطبعة الثالثة. وانظر أيضا حافظ إبراهيم شاعر النيل للدكتور عبد الحميد سند الجندي، ص15 وما بعدها، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

"كان إرهاصاً لطيفاً، وإيماء طريفاً، إذ شاء القدر ألا يولد شاعر النيل إلا على صفحة النيل"، وقد أُنْعِم على حافظ بنيشان النيل حيث أطلق عليه بعد ذلك لقب شاعر النيل وإن كان يفضل دائماً أن يلقب بالشاعر الاجتماعي، إذ كان يرى أن النيل جزء من العروبة والعروبة جزء من الشرق والإسلام وهو شاعر العروبة والشرق والإسلام بالمضمونين الاجتماعي والوطني".[1]

هذا عن ولادته، أما عن تربيته فقد "عاش في كنف أبيه أربع سنوات، وبعد موت أبيه عادت به أمه من ديروط إلى بيت أسرتها.

ولما كان جدّ حافظ قد توفى قبل مولده، فقد تولى أمره وأمر الأسرة الصغيرة خاله محمد نيازي الذي كان مهندساً بتنظيم القاهرة.

ولما بلغ حافظ إبراهيم السنّ التي تؤهله لدخول المدارس، أدخله خاله أقرب مدرسة إلى منزله في ذلك الوقت؛ وبها تعلم القراءة، والكتابة، وشيئاً من العربية والحساب والدين. ثم انتقل إلى المدرسة الخيرية بالقلعة، وبها التقى مع الزعيم مصطفى كامل.

وحينما نقل خاله إلى وظيفة مهندس تنظيم بطنطا، انتقل حافظ إلى المدرسة الثانوية بهذه المدينة لاستكمال تعليمه، ولكنه لم ينتظم بها لا انصرافاً عن التعليم وإنما لأن الذي كان يلقاه فيها من دروس لا يتفق وميوله الطبيعية التي وجدها في الجامع الأحمدي بطنطا حيث كان يجلس في حلقات الدرس يتلقى عن الأئمة العلماء دروساً في علوم اللغة والفقه والشريعة، وتجذبه اللغة وآدابها، ويشد الشعر بموسيقاه ووقعه في

(1) راجع مقدمة الديوان، ص27: 28.

النفس كل انتباهه، ويملك عليه حواسه؛ فبدأ بدراسة الشعر، واطلع على دواوين الشعراء القدامى ويجد نفسه قد حفظ كل ما تقع عليه عيناه من عيون الشعر والأدب. ثم إذا به بعد قليل يقرض الشعر وينظمه على نحو أثار إعجاب الكثير من الشيوخ الأدباء وذواقي الأدب في مدينة طنطا.[1]

ويبدو أن نفحة الشعر قد باكرته في هذه السن الصغيرة، فأخذ يحلق في سماء القريض بجناحين ضعيفين، فكان يمضي في نظمه حيناً ويكبو حيناً آخر.

شغف حافظ إبراهيم بقراءة كتب الأدب وبخاصة كتاب "الوسيلة الأدبية" للشيخ حسين المرصفي، ويبدو أن هذا الكتاب قد فتن به كثير من ناشئة المتأدبين في ذلك الحين. فهم يذكرون أن الشاعر شوقي كان عماده كتاب "الوسيلة الأدبية" فألمَّ بما فيه من مسائل لغوية ومن نصوص شعرية وخاصة ما اتصل بالبارودي[2].

وكان حافظ شاعراً بطبعه، ظهرت مواهبه الشعرية وهو في سن السادسة عشرة من عمره، لم يتلقها من معلم أو أديب، ولم يتعلمها في المدارس التي انتظم بها، بل كانت وحي الإلهام والسليقة، فكان يقول الشعر وهو في هذه السن المبكرة، ويأخذ نفسه بالمطالعات الشعرية ويحفظ قصائد فحول الشعراء المتقدمين، واشتدت به الرغبة إلى محاكاتهم في جيد الشعر، فواتته سليقته الشعرية وساعدته على تحقيق

(1) راجع مقدمة الديوان ص20: 22 "بتصرف".
(2) شوقي شاعر العصر الحديث، للدكتور شوقي ضيف ص105، دار المعارف بمصر، الطبعة الحادية عشرة.

رغبته وبدءٌ مع الزمن أولئك الشعراء، وبلغ الذروة في عالم الشعر والأدب.[1]

ولم يكتف حافظ إبراهيم بقراءة كتاب (الوسيلة الأدبية) فحسب؛ ولكنه عكف على قراءة الكثير من كتب الأدب العربي وأشبع رغبته منها، وخاصة كتاب "الأغاني" الذي قيل أنه قرأه مرات، وكتاب "المكافأة" وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات الكتب، إذ كانت الثقافة التي تلقاها بالمدارس قليلة محدودة، لا غناء فيها، وكان – إلى جانب ذلك - يطيل النظر في دواوين الشعراء ويحفظ متخيرها، ويحسن الوقوع على الشعر الجيد الرائع، يختزنه بين محفوظه، وساعده على ذلك حافظة قوية تسعف ذوقه، وذاكرة حادة تلبى حاجته، وكانت هاتان الحاستان موضع إعجاب أصحابه ومضرب المثل بينهم[2].

فلقد "كان حافظ قوي الحافظة، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم فلم نشهدهم ونلامسهم لأحلْنا ما يُروى عنه في هذا على ما يتزيّد به القُصّاص ويسرفون في المبالغة طلباً للإفلاق والإغراب ولقد كان – رحمه الله- يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير أو المقالة لكاتب مبرّز، فإذا عيناه تجمزان فيها جمزاً حتى يأتي على غايتها ثم يطرح الصحيفة حتى ما تشك في أنه كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر، فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال إلا أن تبعث

(1) شعراء الوطنية في مصر تأليف عبد الرحمن الرافعي ص123: 124، الطبعة الثانية 1386هـ/ 1966م، الدار القومية للطباعة والنشر.
(2) حافظ إبراهيم شاعر النيل، للدكتور عبد الحميد سند الجندي ص69.

المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال، فإذا حافظ يروي بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه بالزراعية لبلوغه الغاية من الفسولة والإسفاف".[1]

ولعل من أهم مصادر ثقافة حافظ التي أثرت في اتجاهاته الفنية تلك المجالس التي كان يرتادها؛ فلقد عاشر حافظ من أول فناء السن إلى غاية العمر أعلام الأدب واللغة والعلم والسياسة في عصره، وداخلهم وجالسهم ونادرهم وأخذ عنهم. وناهيك بمن طوى عمره في مصاحبة الإمام محمد عبده وحمزة فتح الله وإبراهيم اليازجي ومحمد المهدي وسامي البارودي ومصطفى كامل وسعد زغلول وأخيه فتحي وقاسم أمين، وإسماعيل صبري وحفني ناصف وأحمد حشمت وعلي يوسف وإبراهيم المويلحي وابنه محمد ... وسواهم من كل من يجري في العلم والأدب على عرق كريم. وكان حافظ متسعّر الذهن قوي الحافظة مستقيم الطبع، فأصاب من صحبه أولئك العلماء وطول مذاكرتهم أنفس ما أصاب من ألوان العلم والمعرفة[2].

ولقد كان لمثل هذه المجالس أثرها الواضح في ثقافة حافظ إبراهيم حيث كانت "مجالسهم مدارس من أرقى المدارس، تطرح فيها المسائل العلمية، والمعضلات السياسية والمشكلات الاجتماعية وتعرض فيها الحلول المختلفة، وتبسط فيها أدواء الأمم وكيف عولجت وما إلى ذلك- وحسبك بمدارس كان المعلم فيها محمد عبده وسعد،

(1) مجلة أبولو، يونيه، 1933، ص1311.
(2) حافظ إبراهيم شاعر النيل، للدكتور عبد الحميد سند الجندي ص73: 74.

ومصطفى كامل- ولعل هذا كان أكبر منبع استقى منه حافظ أفكاره التي صاغها في شعره[1].

تلك هي الثقافة الموسوعية التي اتسعت معها وبها آفاق حافظ إبراهيم، والتي نظر من خلالها إلى الوحدة العربية والوحدة الإسلامية، ومن ثم أكثر القول في علاقة الشاميين والمصريين، وفي الدعوة إلى الإخاء والقضاء على من يبذر بذور البغضاء وفي علاقة مصر بالآستانة وتمنى نهضة الخلافة، ورفع لوائها وعودة مكانتها، وكم شعر في وحدة الشرق وتعاونه وتبادل المنافع بين أقطاره؛ فكان شعره مقرّباً للقلوب داعياً إلى ائتلاف الشعوب ينتهز لذلك كل فرصة، كافتتاح السكة الحديدية الحجازية، وأعياد الدستور للأمة التركية أو حفلات التكريم التي يشترك فيها أدباء الشرق، ونحو ذلك، بل أحياناً يزيد اتساع أفقه، فينظر إلى الإنسانية كلها، كالذي يقوله في زلزال مسّينا[2].

وهكذا أصبح حافظ إبراهيم صاحب ثقافة واسعة وكبيرة في نواح متعددة ولعل ذلك كان سبباً في نبوغه وتفوقه في الشعر، مما تحدث لنا به وأبرزه في صورة قصائد شعرية، تجعل كل من يتصفحها يقف على مكانة حافظ بين شعراء عصره ويسلّم بأنه علم من أعلام الشعر في تلك الفترة السابقة أو اللاحقة. فهو بحق من أوائل من عبّروا في أشعارهم عن أحوال الناس والمجتمع ورسموهم بصورة خاصة وآلة تصوير حادة تخرج الشكل مجسماً.

---

(1) مقدمة الديوان، ص39: 40.
(2) المصدر السابق، ص81.

فحافظ إبراهيم كان وسطاً بين شعراء الحرية والقومية وشعراء الحرية الشخصية، لم يهمل الناحيتين ولم يبلغ في أحدهما الكمال، فهو شاعر الحياة القومية من كلامه عن الوطن وعن السفور والحجاب وعن فاجعة دنشواي... ثم هو شاعر الحياة الشخصية في شكواه وهزله وخمرياته ومسجلاته وفيما يبدو خلال قصائده الاجتماعية من ميول نفسه وخلجات طبعه فليس له في أبناء جيله نظير."[1]

لقد أجاد حافظ إبراهيم في الكثير من أغراض الشعر كالرثاء الذي أجاد فيه كل الإجادة وأحسن كل الإحسان وسبب ذلك أنه استطاع في كثير من الأحيان أن ينقل الرثاء من مسألة فردية إلى مسألة اجتماعية فموت الأستاذ الشيخ محمد عبده نكبة على مصر وعلى العالم الإسلامي وموت مصطفى كامل كارثة على مصر وعلى الوطنية الحقة.[2]

هذا ومن أقوى المصادر التي تأثر بها حافظ إبراهيم، وصور عنها فى شعره – القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة.

أما عن أثر القرآن الكريم في شعره؛ لغته، وأسلوبه، ومعانيه، وصوره – فواضح جلى في الكثير منه؛ ولنكتف ببعض النماذج هنا.

فها هو ذا في قصيدته (الشمس) يتأثر تأثراً بالغاً بما جاء في سورة الأنعام من قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ

(1) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، للعقاد،ص 15، المكتبة العصرية،صيدا، بيروت.
(2) المرجع السابق، ص82.

وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ. فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ. فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.)[1]

فالآيات الكريمة تحمل حواراً دينياً دار بين إبراهيم عليه السلام وقومه حول ما يعبدونه من كواكب. وكيف اهتدى إبراهيم عليه السلام إلى عبادة خالق هذه الكواكب. ومن ثم تبرأ من عبادة قومه لها.

وقد كانت الشمس والقمر فى ظهورهما وأفولهما وسيلة إبراهيم عليه السلام لمعرفة الخالق – جل وعلا – وقد اتخذهما آية فى إفحام قومه والرد عليهم وتسفيه ما يعبدون من دون الله.

وقد نظم الشاعر حافظ إبراهيم ذلك المشهد القرآني فى قصيدة رائعة فى وصف الشمس، حيث يقول:

لاَح منهـا حاجِـبٌ للنّـاظِرِينْ ∴ فَنسُـوا باللّيـلِ وَضـاحَ الجَبِـينْ
وَمحـــت آيَاتُهـــا آيَتَـــه ∴ وَتَبَينَّـــتْ فِتَنـــةً للعـــالَمِينْ
نَظَـــر آبرهـــامُ فيهـــا نَظْـــرَةً ∴ فأَرَى الشَّكَّ وما ضَلَّ اليَقينْ[2]
قـــال: ذا رَبِّـــى فلمّـــا أَفَلَـــتْ ∴ (قـــالَ : إنّـــي لاَ أُحِـبُّ الآفِلِـينْ)
وَدَعَـــا القَـــوْمَ إلـــى خالِقِهـــا ∴ وأَتَـــى القـــومَ بُســـلْطانٍ مُبـــينْ
رَبِّ إنّ النـــاسَ ضَـــلُّوا وغَـــوَوْا ∴ ورَأَوْا فى الشّمسِ رأىَ الخاسِرِينْ

---

(1) سورة الأنعام. الآيات من 74 : 79.
(2) أبراهام : لغة فى إبراهيم. وهو نبى الله إبراهيم عليه السلام. ويشير بذلك إلى ما قصه الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة الأنعام عن إبراهيم عليه السلام وقومه.

خَشَعَت أَبصارُهُمْ لمّا بَدَتْ ∴ وإلىَ الأَذْقانِ خَرُّوا ساجِدِينْ
نَظَرُوا آياتِها مُبْصِرَةً ∴ فَعصَوْا فيها كَلامَ المُرْسَلِينْ
حِكْمَةٌ بالِغَةٌ قد مَثَّلتْ ∴ قُدْرَةَ اللهِ لقَوْمٍ عاقِلِينْ[1]

والحقيقة أن تلك القصيدة تحمل دلالة قوية على تأثر حافظ إبراهيم بالتصوير والأسلوب القرآنيين. لكنه لم يحاول فيها أن يتعمق المسيرة العقدية الإنسانية، ويربط بينها وبين الوجود الإنساني؛ ومن ثم أصبح ما نظمه أقرب ما يكون للشعر التعليمي القريب فى مأخذه.

هذا، ويتجلى تأثر الشاعر بالقرآن الكريم أيضاً فى استعانته بما جاء فيه متعلقاً ببعض الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين – وذلك عندما ينسج صوره الشعرية مستقياً خيوطها مما جاء عن هؤلاء الأنبياء، فيقول عن الإمام محمد عبده، وكان مصاحباً له فى بعض أسفاره" فى الوجه البحري كثير الأسئلة له، حريصاً على الإفادة منه:

وكنتُ كما كان (ابنُ عِمْرانَ) ناشِئاً
وكانَ كَمنْ فى (سُورَةِ الكَهْفِ) يُوصَفُ[2]

فهو هنا يشير إلى قصة نبى الله موسى مع الخضر عليهما السلام، وإكثار موسى على الخضر فى الأسئلة، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك فى سورة الكهف.

ويبدو تأثره كذلك عندما يتحدث على لسان بعض المتصوفة إلى معشوقة "شكيب"[1] قائلاً له: إنه إذا تعرض لمكروه دعا إليه بساط

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 207: 208.
(2) ديوان حافظ إبراهيم ، ص 21.
(1) شكيب ، غلام تركى زعموا أنه كان يعشقه هذا المتصوف.

سليمان يحمله عليه وتدفعه الريح التى سخرها الله لنبيه سليمان، حتى يراه قريباً منه... يقول حافظ :

عُدْ إلينا فقد أَطَلْتَ التَّجافِي (م) واركبِ البَرْقَ إنْ أَطَقْتَ الرُّكُوبا
وإذا خِفْتَ ما يُخَاف مِن الَيمِّ (م) فَرَشْنا لأَخْمَصَيْكَ القُلُوبا
ودَعَوْنا بِساطَ صاحبِ بِلقِيـ (م) ـسَ فَلَبَّى دُعَاءَنا مُسْتَجِيبا
وأَمَرنا الرِّياحَ تَجْرِى بأَمْرٍ (م) منكَ حتّى نَراكَ مِنّا قَرِيبَا[1]

فالشاعر فى هذه الأبيات متأثر بقوله تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ.)[2].

وبلقيس، هي ملكة سبأ. وصاحبها هو نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، وقصتها مع سيدنا سليمان عليه السلام مشهورة، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة النمل، قال تعالى: (إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ." (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)[3].

تلك الآيات الكريمة (23 : 44) من سورة النمل تقص علينا قصة نبى الله سليمان عليه السلام مع بلقيس ملكة سبأ وقومها الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله. وهنا نرى كيف استطاع الشاعر أن يوظف بعض عناصر تلك السورة الكريمة لتصوير معشوق ذلك الصوفى مع أنه يهجوه ويصفه بالقبيح من الصفات.

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم ، ص 161.
(2) سورة الأنبياء ، الآية 81.
(3) سورة النمل الآيات 23: 44.

وكذلك نجده يوظف عناصر أخرى من تلك القصة أيضاً، وذلك عندما أراد أن يهنئ سليمان أباظة[1] بالإبلال من مرض ألم به وبعرس نجله "على بك"، فيقول :

تَرَاءى لكَ الإقْبالُ حتّى شَهِدْناه ∴ ودان لكَ المِقْدارُ حتّى أَمِنّاهُ
(سُلَيْمانُ) ذَكَّرْتَ الزّمانَ وأَهْلَه ∴ بعِزِّ (سُلَيْمانٍ) وإقْبالِ دُنْياهُ
إذا سِرْتَ يوماً حَذَّرَ النَّمْلُ بَعْضَهُ ∴ مَخَافَةَ جَيْشٍ مِنْ مَوالِيكَ يَغْشاهُ
وإنْ كنتَ فى رَوْضٍ تَغَنَّتْ طُورُه ∴ وصاحَتْ على الأفْنانِ يَحْرُسُكَ اللهُ
وكان (ابنُ داوُدٍ) له الرّيحُ خادِمٌ ∴ وتَخْدُمُكَ الأيّامُ والسَّعْدُ والجاهُ[2]

ويلاحظ على تلك الأبيات أن ليس هناك ثمة رابطة معنوية أو فنية تربط بين المهنأ "سليمان أباظة"، والنبي سليمان عليه السلام. أكثر من أنه سَمّيُه ولا شك أن فى ذلك غلواً وشططاً ملحوظاً. وبخاصة فى تحذير النمل بعضه بعضاً إذا ما أحس "سليمان أباظة" يقول حافظ:

إذا سِرْتَ يوماً حَذَّرَ النَّمْلُ بَعْضَهُ ∴ مَخَافَةَ جَيْشٍ مِنْ مَوالِيكَ يَغْشاهُ

فالشاعر متأثر هنا بقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ)[3].

هذا ويبدو تأثر حافظ إبراهيم بالقرآن الكريم كذلك، فيما استقاه من سورة يوسف، وما جاء فيها من بصمات قوية ومتعددة، حيث يأتى ذلك أحياناً فى شكل إشارات عاجلة يحكمها الافتعال، ذلك

(1) سليمان أباظة، هو ابن حسن أباظة، وكان مولده سنة 1824م . وتولى عدة مناصب فى الحكومة المصرية، وآخرها نظارة المعارف، وكانت وفاته سنة 1897م.
(2) ديوان حافظ إبراهيم ، ص 37.
(3) سورة النمل ، الآية 18.

عندما يهنئ الشاعر "رفعت بك" بوكالته لمصلحة السجون فيقول:

أهَنِّيـــكَ أَمْ أَشْـــكُو فِراقَـــكَ قـــائِلاً أيَـا لَيْتَنـى كُنْـتُ السَّـجِينَ المُصَـفَّدَا

فلو كنتَ فى عهد (ابنِ يَعْقُوبَ) لم يَقُلْ لصـاحِبِهِ: اذكُرْنـي ولا تَنْسَـني غدَاً[1]

فالشاعر فى تأثره هنا بقوله تعالى: (وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ)[2]. يريد أن يقول: إن السجناء يتمنون بقاءهم فى السجن لحسن أخلاقه وجميل عشرته. فلو أنه تولى السجن فى عهد يوسف عليه السلام لفضل البقاء بجانبه فى السجن، ولم يقل لصاحبه الذى نجا (اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ) كما حكى الله تعالى ذلك فى قرآنه الكريم.

ولم تخل خمريات حافظ إبراهيم من التأثر بالقرآن الكريم، فها هو ذا فى قصيدته التى بعث بها إلى محمد المويلحي بك الكاشف المعروف[3]، يقول:

خَمْـرةً قِيـلَ إنّهـم عَصـرُوها مِنْ خُدودِ المِلاحِ فى يَوْمِ عُرْسِ

مُـذْ رَآهـا فَتَـى العَزِيـزِ منَامـاً وهْو فى السِّجْنِ بَيْنَ هَمٍّ ويَأْسِ

أَعْقَبَتْهُ الخَلاصَ مِنْ بَعْدِ ضِيقٍ وحَبَتْـه السُّعودَ مِنْ بَعْدِ نَحْسِ[4]

فالشاعر هنا متأثر بقوله تعالى: (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم ، ص 33.
(2) سورة يوسف، الآية 42.
(3) هو محمد بك ابن إبراهيم المويلحي، ولد بالقاهرة سنة 1858م. وبعد أن أخذ حظه من التعليم تولى عدة مناصب فى الحكومة واشترك فى تحرير عدة صحف، وكان هو ووالده من أعلام الكتاب المشهورين فى مصر إذ ذاك. ومحمد بك المويلحى، هذا هو مؤلف كتاب عيسى ابن هشام توفى سنة 1930م. ديوان حافظ إبراهيم، ص 150. وانظر أيضاً: حديث عيسى ابن هشام لمحمد المويلحى، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(4) ديوان حافظ إبراهيم، ص 241: 242.

خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).

وقوله تعالى: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ)[1].

وقد ضمن خمريته قصة السجين الذى رأى فى المنام أنه يعصر خمراً وفسره له يوسف عليه السلام وهو فى السجن، بأنه سيخرج من السجن ويكون من ندامى الملك. فما لبث أن خرج من السجن، وجعله العزيز (صاحب مصر) صاحب شرابه.

ومن الواضح أن الشاعر يستعمل هنا ما يسمى فى علم البلاغة بحسن التعليل؛ لأن الواقع يقول: إن الخمر لم تكن هى السبب فى خروجه من السجن، وحسن التعليل كما نعلم هو ذكر سبب فيه جمال وطرافة لأمر من الأمور أو ظاهرة من الظواهر.

وقد تأثر حافظ إبراهيم كذلك بقوله تعالى فى سورة الجن: (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا)[2]، وذلك فى رسم صورة ممتدة للمدفع وأهواله فى قصيدته "دولة السيف ودولة المدفع"، حيث يقول[3]:

ما كَوْكَبُ الرَّجْمِ هَوَى مِنْ عالِ
فمرَّ كالفِكْرِ سَرى بالبالِ

---

(1) سورة يوسف، الآيتان: 36، 41.
(2) سورة الجن، الآيتان 8، 9.
(3) ديوان حافظ إبراهيم، ص 210: 211.

عَلـــى عَنِيـــدٍ مـــارِدٍ مُحْتَـــالِ
مُسْـــتَرِقٍ للسَّـــمْعِ فـــى ضَـــلالِ
مِـــنْ عـــالَمِ التَّسْـــبِيحِ والإهْـــلالِ
أمْضَـــى وأَنْكَـــى منـــه فـــى القِتَـــالِ
إذاَ سَـــــرَتْ قُنْبُلَـــــةُ الوَبـــــال
مِـــنْ فَمِـــه المَحْشُـــوّ بالنكَّـــالِ.

فالشاعر هنا يرسم صورة للمدفع والأهوال التى يحدثها بإرهاب قلوب الأبطال وزعزعة الجبال وإفزاع الأسود وخطف الأرواح، وإرسال كتل النار التى تثير الأهوال.

ولا شك أن الشاعر متأثر فى كل ذلك بما جاء فى القرآن الكريم فى سورة الجن؛ حيث إن الجن كانت تسترق السمع من السماء قبل بعثة النبى محمد ﷺ. فلما بعث عليه السلام وأرادت الجن استراق السمع كما كانوا يفعلون قبل البعثة رجموا بالشهب. "مسترق السمع فى ضلال". فمضمون الصورة التى رسمها الشاعر للمدفع متأثر بصورة الشهب التى منعت الجن من اختراق السماء للسمع.

هذا، وقد عرض لنا الشاعر الصورة السابقة مرة أخرى بأسلوب فيه جزالة وقوة جرس؛ مما يتفق مع طبيعة المشهد الموصوف، وذلك عندما يتحدث عن سفن الأسطول العثمانى فى قصيدته " تحية الأسطول العثمانى"، التى يقول فيها:

وهْىَ فى الحَرْب قَضاءٌ سابحٌ يَدَعُ الحِصْنَ تِلالاً ورِجامـا

مـا نُجُـومُ الـرّجْمِ مِـنْ أَبْرَاجِهـا إِثْـر عِفْريتٍ مِـن الجِنِّ تَرَامَـى

مِـنْ مَرَامِيهـا بـأَنْكَي مَوقِعـاً لاَ ولاَ أَقـوَى مِراسـاً وعُرامـا[1]

ويفتخر حافظ إبراهيم بأول مسلم طار بطائرته، وذلك عندما يتحدث عن طائرة الطيار "فتحى بك". فى تلك القصيدة التى كانت قد أعدت لاستقبال ذلك الطيار، فسقطت به طائرته ومات قبل إتمام رحلته إلى مصر، فرأى حافظ من الوفاء نشر هذه القصيدة بعد موته لتكون له حياً وميتاً، وهى التى يقول فيها:

أَهْـلاً بِـأَوَلِ مُسْـلِمٍ فـى المَشـرِقَيْنِ عَـلاَ وَطَـارْ

النِّيـلُ والبُسْـفُور فِيـكَ تَجاذَبـا ذَيْـلَ الفَخـارْ

يـومَ اَمتَطَيْـتَ بُراقَـكَ الـ مَيْمُـونَ واجتَـزْتَ القِفـارْ[2]

وهو هنا يكنى " بالنيل والبسفور " عن مصر وتركيا التى هى قلب الخلافة الإسلامية ورمز للمسلمين جميعاً.

وفى الحقيقة أن الشاعر قد أجاد فى وصف ذلك الطيار وطائرته حيث وصفها بالبراق، وهو الدابة التى ركبها النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وذلك فى قوله:

يـومَ اَمتَطَيْـتَ بُراقَـكَ الـ ∴ مَيْمُـونَ واجتَـزْتَ القِفـارْ

وكذلك يصفها بالشهاب فى سرعتها. ذلك الذى كان يرسل على كل من يحاول استراق السمع من الجن. فيقول:

مِثْـل الشِّـهاب أنقَـضَّ فـى ∴ آثـارِ عِفْرِيـتٍ وَ ثـار[3]

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم، مرجع سابق، ص 377: 378.
(2) ديوان حافظ إبراهيم ص 390: 391.
(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 391.

ويتجلى تأثر حافظ إبراهيم بالقرآن الكريم فى استقائه لملامح الجنة، كما جاءت فى القرآن ليشبه بها مظاهر الجمال الدنيوي التى تأسره وتلفت نظره، كتلك الزينة الكبرى التى أقيمت فى حديقة الأزبكية فى مساء 8 من يناير سنة 1901 بمناسبة الاحتفال بليلة عيد جلوس الخديوى. فيقول:

يالَيْلَةٍ أَلْهمتْنِي ما أَتِيهُ به ... على حُماةِ القَوَافِى أَيْنَما تاهُوا

إِنِّى أَرَى عَجَبا يَدْعو إلى عَجَبٍ ... الدّهرُ أَضْمَرَه والعِيدُ أَفْشَاهُ

هل ذاكَ ما وَعَدَ الرحْمنُ صَفْوَتَهُ ... رَوْضٌ وحُوُرٌ وولِدانٌ وأَمْواهُ[1]

فالتأثر بالقرآن واضح فى البيت الأخير من الأبيات السابقة، حيث شبه مظاهر الزينة والجمال التى أقيمت بحديقة الأزبكية بتلك المظاهر التى وعد بها الرحمن من اجتباه من عباده. فأعد لهم الجنان والحور العين والولدان والمياه العذبة فى قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)[2].

وقوله جل شأنه: (يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ)، وقوله تعالى: (وَحُورٌ عِينٌ)[3]. والآيات الكريمات اللاتي وردت فى القرآن الكريم على هذه الشاكلة كثيرة ومتعددة.

وكذلك قد تأثر حافظ إبراهيم بقوله تعالى فى وصف ما أُعدَ للمؤمنين فى الجنة: (يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا

(2) المصدر السابق، ص 211: 213.
(3) سورة البروج، الآية 11.
(4) سورة الواقعة، الآيتان 17، 22.

تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)[1]

وذلك فى وصفه لإيطاليا فى أثناء رحلته إليها، حيث يقول:

أَرْضُـهُمْ جَنّـةٌ وحُـوُرٌ وولْـدا ∴ نٌ كما تَشْتَهِى ومُلْكٌ كَبِيرُ[2]

وأما فى قصيدته (زلزال مّسينا سنة 1908م). فنجد الشاعر قد رسم حوادث الزلزال فى مّسينا ووصف الشعب الإيطالي وما لاقى من عنت وعذاب، وصور الطبيعة هائجة تغلى حقداً، والأرض تبغى، والبحر يطغى، والجبال ترجم وتقذف بشواظ من مارج ودخان، فكأنه يستعير وصف جهنم من القرآن أو يوم القيامة حين تزلزل الأرض زلزالها[3].

والقصيدة من بدايتها إلى نهايتها تصف لنا ما أحدثه ذلك الزلزال من دمار هالك أتى على كل شىء فى هذه البلدان فأحالها خراباً يباباً، يقول:

بَغَـتِ الأرضُ والجبـالُ عليهـا وطَغَـى البحـرُ أيَّمـا طُغْيـانِ
تلـكَ تَغْلـي حِقداً عليها فتنْشـقْ ـقُ انْشِـقاقاً مِـنْ كَثْـرةِ الغلَيَـانِ

ثم يقول :

أينَ (رِدْجُو) وأينَ ما كانَ فيها مِـنْ مَغـانٍ مأْهُولَـةٍ وغَـوانِي
عُوجِلَـتْ مثْـلَ اَخْتِهـا ودَهاهـا مادَهاهـا مِـنْ ذلِـك الثَّـوَرانِ[4]

فالشاعر هنا يشير إلى (ردجو) كالابريا. وهى ولاية فى إيطاليا متاخمة للبحر الأيواني، وبوغاز مسّينا وقد هدمها ما انتابها من الزلزال

(1) سورة الزخرف، الآية 71.
(2) ديوان حافظ إبراهيم، ص 229.
(3) الوصف يشارك في وضع هذه المجموعة لجنة من أدباء الأقطار العربية، ص 106، الطبعة الثالثة، دار المعارف.
(4) ديوان حافظ إبراهيم، ص 216 : 217.

كما هدم أختها مسّينا.

ولقد تأثر حافظ إبراهيم فى تصويره لذلك الزلزال الذى وقع فى جنوب إيطاليا ببلدة "مسّينا" بقوله تعالى: (حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ)[1]. وذلك فى قوله :

خُسِفَتْ، ثم أُغْرِقَتْ، ثمّ بادَتْ قُضِىَ الأمْرُ كلُّه فى ثَوانِى
وأَتَى أَمْرُها فأَضْحَتْ كأَنْ لَم تَكُ بالأَمْسِ زِينَةَ البُلْدَانِ[2]

وكذلك نلمح تأثر حافظ إبراهيم بالقرآن الكريم فى تضمينه شعره لبعض الآيات القرآنية أو أجزاء منها. وقد كان حافظ بارعاً فى هذا التضمين حيث يضع الآية الكريمة فى مكانها الصحيح من سياق شعره دون افتعال أو تكلف. ومن ذلك قوله فى قصيدته "تحية الأسطول العثمانى" والتى أنشدها فى مارس 1910م.

(قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) ∴ طاوَلَ الخَالقِ فى الكَوْنِ وسَامَى[3]

فنجده قد ضمن الشطر الأول من البيت السابق. الآية الكريمة رقم 17 من سورة (عبس).

وكذلك جاء فى عتاب وجهه إلى جماعة من أصحابه فى قوله :

أَصَبْتُمْ تُراثاً وأَلْهاكُمُ التَّ (م) كاثُرُ عَنْا فُسِرَّ الْعِدا
ومَنْ كان يُنْسِيه إثْراؤُه ∴ صَدِيقَ الخَصاصَةِ لا يُصْطَفى[4]

فقد ضمن بيته الأول الآية الأولى من سورة التكاثر. كما ضمّن فى البيت

---

(1) سورة يونس ، الآية 24.
(2) ديوان حافظ إبراهيم، ص 216.
(3) المصدر السابق ، ص 379.
(4) ديوان حافظ إبراهيم، ص 197.

الثانى معنى الآية الكريمة (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)[1].

هذا، ويقول فى قصيدته التى أنشدها فى المهرجان الذى أقيم لتكريم " أحمد شوقى بك" بالأوبرا فى إبريل سنة 1937م.

عَمِلْتَ على نَيْلِ الخُلُودِ فنِلْتَه ∴ فقُلْ فى مَقامِ الشُّكْرِ يا رَبِّ أَوْزِعِ[2]

صادراً عن قوله تعالى بشأن سليمان بن داود عليهما السلام فى سورة النمل (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ)[3].

وكذلك قوله:

وإن شِئْتِ عَنّا يا سَماءُ فَأَقْلِعي ∴ وَيَا ماءَها فاكفُفْ ويا أَرْضُ فابْلَعِي[4]

ففى ذلك البيت إشارة إلى قوله تعالى فى سورة هود (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي)[5].

ويقول فى قصيدته التى أنشدها فى حفل أقيم بدار الجامعة المصرية لتكريم (خليل مطران بك) بمناسبة الإنعام عليه بالنيشان المجيدي.

فجرى فيه ما جَرى من حَديثٍ ∴ كانَ بَرْداً على الْحَشا وسَلاّماً[6]

حيث جاء الشطر الثانى من البيت متضمناً قوله تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)[1].

---

(1) سورة التكاثر، الآية رقم 1، وكذلك سورة الحشر، الآية رقم 9.
(2) ديوان حافظ إبراهيم، ص 125.
(3) سورة النمل، الآية 19.
(4) ديوان حافظ إبراهيم، ص 127.
(5) سورة هود، الآية 44.
(6) ديوان حافظ إبراهيم، ص 60.

وفى الحقيقة أن مثل هذه التضمينات والإشارات إلى الآيات القرآنية لفظاً ومعنى تضمين معناها كثيرٌ جداً فى شعر حافظ إبراهيم، مما يدلنا دلالة قوية على مدى تأثره بالقرآن الكريم. ومن ثم تتضح لنا الروح الإسلامية فى شعره، فهو يعلم أن القرآن هو قمة البيان والبلاغة، وهو الذى أعجز العرب عن الإتيان بسورة من مثله. وكان حافظ أشد الشعراء حرصاً على اختيار اللفظ وتذوق جرسه الذى يقع فى أذنه وفى نفسه حين يختاره، وكان حريصاً كذلك على أن تكون ألفاظه فخمة ضخمة تحرك المشاعر وتثير العواطف.... وكان هذا هو أهم الطوابع الفنية لحافظ.

وقد وجد فى الكلمة القرآنية والأسلوب القرآني مثله الأعلى وطلبته التي يبغيها؛ فاللفظة القرآنية آسرة بفخامتها وضخامتها، مثيرة بجرسها ورنينها والتكرار فى القرآن سمة فنية للتأكد وإثارة المشاعر، ومن ثم جاءت مطالع قصائده بالذات مصطبغة بالصبغة الدينية، يستعمل ألفاظ الدين والقرآن ليجتذب بها القلوب ويتصيد بها المشاعر. وهو يعلم أن الصيغ الدينية لها فى القلوب وفى الأسماع نغم محبوب جذاب[2].

أما عن تأثر حافظ إبراهيم بالحديث النبوى فى شعره، فقد جاء قليلاً بالنسبة إلى تأثره بالقرآن الكريم. فمن مظاهر تأثره بالحديث قوله فى شوقى:

لئن عجبوا أن شابَ (شوْقِى) ولَمْ يَزَل فَتىَ الهَوى والقَلْبِ جَمَّ التَّمتُّعِ

---

(1) سورة الأنبياء، الآية 69.
(2) محاضرات عن حافظ إبراهيم لأحمد الطاهر، ص 62، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1953م.

لقد شَابَ مِنْ هَوْلِ القَوافِي وَوقْعِها وإتْيانِـــه بـــالمُعْجِزِ المُتَمنِّـــع

كمـــا شَـــيَّبَتْ هُـــودٌ ذُؤابـــةَ أَحْمَـــدٍ وَشَـــيَّبَتِ الهَجْـــاءُ رَأْسَ المُـــدَرَّعِ[1]

فالشاعر فى هذه الأبيات متأثر بقول الرسول ﷺ "شيبتني هود والواقعة والحاقة وإذا الشمس كورت". وفى رواية "هود وأخواتها"[2]؛ وذلك لما ورد فيها من آيات التهديد والوعيد.

وكذلك جاء قول حافظ مخاطباً الإمام محمد عبده ومدافعاً عنه ضد من حمل عليه من أعدائه فى الصحف ورسموا له صوراً تذرى بقدره، فيقول:

إنْ صَوَّرُوكَ فإنّما قد صَوَّرُوا تـــاجَ الفَخَـــارِ ومَطْلَـــعَ الأَنْـــوارِ

أو نَقَّصُـوكَ فإنّمـا قـد نَقَّصُـوا دِيـــنَ النبـــي محمـــدِ المُخْتـــارِ

لا تَجْزَ عَنَّ فَلَسْتَ أَولَ ماجِدٍ كَـذَبَتْ عليـهِ صَـحائِفُ الفـجَّارِ

رَسَـمُوا بِـذاتِكَ للنّـواظِرِ جَنَّـةً مَحْفُوفَـــةً بمكـــارِهِ الأَشْـــعَارِ[3]

فالشاعر هنا يفخر بالإمام محمد عبده، ويُعلى من قدره، ويجعل كل نقص أو عيب يصيبه إهانة لدين محمدﷺ. ثم نجده فى البيت الأخير من الأبيات السابقة متأثراً بقولهﷺ "حفت الجنة بالمكاره"[4]؛ حيث شبه صور الإمام فى صحف أعدائه وما كتبوه حولها من مستكره الهجو بالجنة التى حفت بالمكاره.

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 121.
(2) راجع سنن الترمذى فى كتاب التفسير باب سورة الواقعة حديث رقم 3267. طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان. وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير، جـ435/2، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1388هـ/1969م.
(3) ديوان حافظ إبراهيم، ص 26 : 27.
(4) صحيح البخارى فى كتاب الرقاق باب حجبت الجنة بالشهوات، جـ11/24. حديث رقم 6487، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

ثانيا ـ أبرز القضايا التي تناولها في شعره الإسلامي :

عُرف حافظ إبراهيم بشاعر النيل مع أنه لم يقتصر في أشعاره على مصر وحدها هبة النيل، بل كان شاعر مصر والعروبة والإسلام فتعددت أغراضه التى أشرنا إلى طائفة منها، وكثرت أشعاره، وتنوعت قضاياه، وطنية كانت، أو قومية، أو إنسانية.

"وأما شعره الوطني والاجتماعي والوصفي، فهو ... غرة شعره ووليد شخصيته، وهوى نفسه ولهذا قد علا في أغلبه علواً كبيراً."[1] والحق أن ديوانه لم يقتصر على الشعر الوطني والاجتماعي فحسب، بل يقترن به "نزعتان عربية وإسلامية، تبدو الأولى في كثير من قصائده، وخاصة قصيدته التي تكلم فيها بلسان اللغة العربية... وأما النزعة الإسلامية فتبدو في قصيدته العُمرية التي قصرها على عمر بن الخطاب وأعماله."[2] وهى التي نعتمدها ، ونجول خلالها تحت العنوان الآتى:

1 – الحاكم الإسلامي وما ينبغي أن يتوفر فيه من قيم :

لقد تجاوزت أبيات تلك القصيدة المائة والثمانين بيتاً وتعددت أفكارها فجاءت غير مرتبة على حد قول دكتور عبد المحسن بدر فى تعليقه عليها "إن الحوادث التي ذكرها حافظ ينقصها حتى مجرد التسلسل التاريخي. إذ هو يبدأها بحادثة مقتله. ثم يتبعها بحادثة إسلامه ثم يذكرها حادثة من هنا وأخرى من هناك بشكل غير مترابط."[3]

---

(1) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي ص199. طبع مطبعة المقتطف والمقطم 1948.
(2) الأدب العربي المعاصر في مصر، بقلم الدكتور شوقي ضيف، ص109.
(1) التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث، دكتور عبد المحسن طه بدر، ص245، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

ولكني أزعم أن الذي قصده الشاعر حافظ إبراهيم من سرده لهذه الأحداث هو بيان عظمة عمر بن الخطاب، حاكماً إسلامياً يقتدى به في عدله وورعه وزهده ورحمته وتقشفه وهيبته ورجوعه إلى الحق وتطبيقه لشرائع الإسلام. وحياة عمر رضي الله عنه مفعمة بالفضائل وشخصيته مليئة بالقيم والخلال الحميدة، ومواقفه في الإسلام متعددة وعظيمة. والإحاطة بكل شيء منها تنوء بحمله المجلدات، والعمل على ترتيبها واتساقها يُجهد الرواة والمؤرخين- ومن ثم كان تناول حافظ إبراهيم لبعض من هذه المواقف، في "مقتل عمر، عمر وبيعة أبي بكر، عمر وعلي، عمر وجبله بن الأيهم، عمر وأبو سفيان، عمر وخالد بن الوليد، عمر وعمرو بن العاص، عمر وولده عبد الله، عمر ونصر بن حجاج، عمر ورسول كسرى، عمر والشورى. ومثال لزهده، ورحمته، وتقشفه، وورعه، وهيبته، ورجوعه إلى الحق، عمر وشجرة الرضوان". وغاية الشاعر منها هي رسم صورة صادقة، عظيمة تمثل كافة جوانبه من خلالها.

ولا شك أن هذا الحاكم هو الذي يتمناه الشاعر للأمة الإسلامية في عصره. "فقصيدته هذه التي تعتمد على "ذكر عدة حوادث من تاريخ عمر ليس الهدف منها توضيح انفعال معين عن عظمة عمر بحيث يسيطر هذا الانفعال على كل حوادث القصيدة ويوجهها وإنما الغرض من ذكر هذه الحوادث استعراض الصفات الأخلاقية العليا التي ينبغي أن يتصف

بها أي خليفة مسلم وضرب الأمثلة على أن عمر يتحلى بهذه الصفات."[1]

هذا، وعندما نقف أمام هذا العمل الفني الجيد للشاعر حافظ إبراهيم يقابلنا كم هائل من المواقف والآراء العظيمة لعمر بن الخطاب الذي هو رمز عظيم من رموز القوة والعظمة الإسلامية. وقد استطاع الشاعر أن يعبر تعبيراً فنياً حاز درجة عالية من الجودة والإتقان حين استهل قصيدته بإهدائها إلى ساحة الفاروق عمر بقوله:

حَسْبُ القَوافِي وحَسْبي حِينَ أُلْقِيها

∴ أَنِّى إلى ساحَةِ (الفَارُوقِ) أُهْدِيها

ولكن الشاعر بعدما تمثل عظمة المهدي إليه استبشع في مرارة قاسية تلك الجريمة النكراء التي أودت بحياته على يد أبي لؤلؤة المجوسي. غلام المغيرة بن شعبة فسارع بتسجيل ذلك الإحساس مشيراً إلى جريمة قتله فيقول:

مَوْلَى المُغِيرَةِ لا جادَتْكَ عاذِيةٌ

∴ مِنْ رَحْمةِ اللهِ ما جادَتْ غوادِيها

مَزَّقْتَ منه أَدِيماً حَشْوُه هِمَمٌ

∴ فى ذِمةِ اللهِ عاليها وماضِيها

طَعَنْتَ خاصِرَةَ (الفارُوقِ) مُنْتَقِما

∴ مِنْ الحَنِيفَةِ فى أَعْلَى مَجالِيها

فَأَصْبَحتْ دَوْلَةُ الإسْلامِ حائِرَةً

---

(1) التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث. للدكتور عبد المحسن طه بدر ص245.

∴ تِشكُو الَوجيعةَ لمّا ماتَ آسِيها

ولا يفوت الشاعر هنا أن يشير إلى أعداء الأمة الإسلامية الذين يتربصون بها السوء فينبه الأمة إلى خطر الموالي ودورهم في إضعاف دولة الإسلام فهم الذين قتلوا عمر بن الخطاب وكذلك هم الذين قوضوا أركان الدولة الأموية. فيقول:

واللهِ ما غالَها قِدْماً وَكادَ لها

∴ واجتَثَّ دَوْحَتَها إلاَّ مَوالِيها

ولا شك أن هؤلاء الذين يكيدون للأمة الإسلامية من أمثال الموالي موجودون فى كل زمان ومكان. ثم نجده يشير إلى آراء الخليفة الموفقة التي كثيراً ما كان ينزل القرآن الكريم ليؤيدها. فيقول:

رأيتَ فى الدِّين آراءً مُوَفَّقَةً

∴ فأنزَلَ اللهُ قرآناً يُزَكِّيها

ثم يبين أن إسلامه كان عزاً ونصراً للمسلمين ، فيقول:

ويومَ أَسْلَمْتَ عَزَّ الحَقُّ وارتَفَعَتْ

∴ عن كاهِلِ الدِّينِ أَثْقالٌ يُعانِيها

فأنتَ فى زَمَنِ (المُخْتارِ) مُنْجِدُها

∴ وأنت فى زَمَنِ (الصِّدِّيقِ) مُنْجِيها

ثم يحاول الشاعر استعراض بعض المواقف العظيمة التي وقفها عمر في وجه أعداء الأمة الإسلامية ليقيها الفتن والمهالك فيقول:

ومَوْقِفٍ لكَ بَعْدَ (المُصْطَفَى) اَفتَرَقَتْ

∴ فيهِ الصَّحابةُ لمّا غابَ هادِيها

بايَعْتَ فيه (أبا بَكْرٍ) فبايَعَه

∴ على الخِلافَةِ قاصِيها ودانِيها

وأُطْفِئَت فِتْنَةٌ لَولاكَ لاسْتَعَرَتْ

∴ بينَ القَبائِلِ وانْسَابتْ أَفَاعِيها

وواضح أنه يشير هنا إلى إخماده للفتنة التي كادت تنشب بين المسلمين في سقيفة بني ساعدة بعد موت النبيﷺ.

ثم يشير الشاعر إلى مظهر آخر من مظاهر عظمة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وهو تقشفه وورعه وعدله وحب الرعية له فهو ليس كغيره من الحكام الذين يحيط بهم الحرس والحجاب فيحجبونهم عن الرعية. فيقول:

ورَاعَ صاحِبَ (كِسْرَى)أَنْ رَأى عُمَرًا

∴ بَيْنَ الرَّعِيةِ عُطْلاً وهو راعِيها

وعَهْدُه بُمُلُوكِ الفُرسِ أنّ لها

∴ سُوراً مِن الجُنْدِ والأحراسِ يَحمِيها

رآه مُسْتَغْرِقاً فى نَوْمِه فَرأى

∴ فيهِ الجَلالَةَ فى أَسْمَى مَعانِيها

ثم يقف الشاعر لبيان أعظم ما عرف به الإسلام من تطبيقه العدل

فى الحكم والشورى فى اختيار الحاكم، حيث كان من أعظم ما رآه الفاروق فى الحكم رأيه فى الشورى. وكيف لا؟ وهو القائل "لا خير في أمر أبرم من غير شورى" ، فقد كان عمر ممن يأخذون بالشورى فى أمورهم، وهو أول من قرر قاعدة الشورى فى انتخاب الخليفة، فقد سئل عندما طعن عمن يوصى به بعده، فقال للمقداد بن الأسود: إذا وضعوني فى حفرتي فأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم، وأحضر عبد الله بن عمر، ولاشيء له من الأمر، وقم على رءوسهم، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحد، فاضرب رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً منهم فحكموا عبد الله بن عمر، فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس[1].

وقد أشار حافظ إبراهيم إلى هذه القصة بقوله :

يا رافِعاً رايَةَ الشُّورى وحارِسَها

∴ جَـزَاكَ رَبُّـكَ خَيْـراً عـن مُحبِّيهـا

لَمْ يُلْهِكَ النَّزْعُ عن تأييد دَوْلَتِها

∴ وللمَنِيَّـــــةِ آلامٌ تُعانِيهـــــا

لَـمْ أَنْـسَ أَمْـرَكَ للمِقْـدادِ يَحْمِلُـه

∴ إلـى الجَماعَـةِ إنْـذارا وتَنْبِيهـا

إ

(1) راجع ديوان حافظ إبراهيم، ص 91.

وإنْ ظَـلَّ بَعْـدَ ثَـلاثٍ رأيُهـا شُـعَباً

∴ فَجرِّدِ السَّيْفَ واضرِبْ فى هَوادِيها

فَاعجَبْ لقوةِ نَفْسٍ ليس يَصْرفُها

∴ طَعْـمُ المِنّيـةِ مُـرّاً عـن مَرامِيهـا

دَرَى عَبِدُ بَنى الشُّورَى بَموْضِعها

∴ فعـاشَ مـا عـاشَ يَبْنيهـا ويُعْلِيهـا

ومـا اسـتَبَدَّ بـرأيٍ فـى حُكومَتِـه

∴ إنّ الحُكومَـةَ تُغْـرِى مُسْـتَبِدّيها

رأىُ الجَماعـةِ لا تَشْـقَى البِلادُ بـه

∴ رَغْمَ الخِـلافِ ورَأْىُ الفَـرْدِ يُشْـقيها

وبعد أن أشار الشاعر إلى الطريقة التى أوصى بها الخليفة عمر بن الخطاب لاختيار من يأت بعده ليحكم المسلمين على أسس من العدل والشورى. ينتهى به القول إلى الأمل فى أن تظهر فى أمة الإسلام الكثير من الحكام أمثال عمر بن الخطاب حتى تعود للأمة عزتها وكرامتها، وتحافظ على أمجادها العظيمة، فيقول:

لَعـلَّ فـى أمـةِ الإسْـلامِ نابِتَـةً تَجْلُو لحاضِرِها مِرْآةَ ماضِيها

حتّى تَرَى بَعْضَ ما شادَتْ أوائِلُها مِن الصُّرُوحِ وما عانَاهُ بانِيها

وحَسْبُها أَنْ تَرى ما كانَ مِنْ (عُمَرٍ) حتّى يُنَبِّهَ منها عَيْنَ غافِيها[1]

لقد كان عمر متقشفاً زاهداً يعيش عيشة الفقراء والبسطاء من الرعية فهو حاكم المسلمين وراعي شئونهم، لا يتميز عليهم بشيء ولا يؤثر نفسه بشيء دونهم. ومن ثمَّ أصبح أمنية وغاية للشعوب الإسلامية على مدى العصور، ولكن هيهات:

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 97.

فَمنْ يُبارِى (أبا حَفْصٍ) وسِيرَتَه

أَوْ مَنْ يُحاوِلُ (للفَارُوقِ) تَشْبِيها[1]

لقد أعجز الفاروق عمر بن الخطاب من جاء بعده من الحكام عن أن يسير على نهجه وفي الحقيقة إننا لو وقفنا أمام كل بيت من أبيات هذه القصيدة لاستطعنا أن نتبين معنى كريماً مما كان يتصف به الفاروق عمر بن الخطاب رضوان الله عليه. ولكن طبيعة البحث تقتضي منا الإشارة السريعة.

وعلى أية حال فإن تلك القصيدة قد تجلت فيها الروح الإسلامية في أبهى صورها وأعظم حُللها لتكون دليلاً قوياً على غلبة الروح الإسلامية بكل جوانبها وحيثياتها في شعر شاعرنا العظيم حافظ إبراهيم.

هذا، وإذا ما انتقلنا مع حافظ إبراهيم إلى بعض الحكام في أيامه، فسنجد احتفاءه بالسلطان عبد الحميد – بصفته امتداداً للخلافة الإسلامية – في قصيدته التي أنشدها تهنئة له بعيد جلوسه، والتي نشرت في سبتمبر 1901م. وسنلتقي فيها بالكثير من الألفاظ الإسلامية: كعرش الخلافة، ودوحة الإسلام، والمسجدين، والملك الأعلى، وسبيل الله، والبيت العتيق، ويثرب، وغيرها. حيث يقول:

وَمَثَّلَ لي عَرْشَ الخِلافَة خاطري فَأرْهَبَ قَلْبِي والجَلالَةُ تُرْهَبُ

فقَامَ بأمرِ اللهِ حتَّى تَرَعْرَعَتْ به دَوْحَةُ الإسْلامِ والشِّرْكُ مُجْدِبُ

وقَرَّبَ بَيْنَ المَسْجِدَين تَقَرُّباً إلى المَلِكِ الأَعْلَى فِنعْمَ المُقَرِّبُ

(1) المرجع السابق، ص 77: 97.

وكم طَوَلُوا فى الأرْضِ إطْفاءَ نُورِهِ وإطْفاءُ نُورِ الشَّمْسِ مِنْ ذاكَ أقْرَبُ

فَـراعَهُمُ منـه بجَـيْشٍ مُـدَجَّجٍ لـه فـى سَبِيلِ اللهِ والحَـقِّ مَـذْهَبُ

يُدانِى شُخُوصَ المَوْتِ حتّى كأنّما لـه بَـيْنَ أظْفـارِ المَنِيـةِ مَطْلَـبُ

إذ ثَارَ فى يَوْمِ الوَغَى مالَ مَنْكِبٌ مِن الأَرْضِ والأَطْوادِ وانهالَ مَنْكَبُ

له مِنْ رُءُوسِ الشُّمِّ فى البَرِّ مَرْكَبٌ ومِنْ ثائِرِ الأَمْواجِ فى البَحْرِ مَرْكَبُ

فِدًى لك يا (عَبْدَ الحَمِيدِ) عِصابَةٌ عَصَتْ أمْلاَ بارِيها وحِزْبٌ مُذَبْذَبُ

ملَكْـتَ علـيهِم كـلَّ فَـجٍّ ولُجّـةٍ فَليسَ لهمْ فى البَرِّ والبَحْرِ مَهْرَبُ

وأَسْـمَعُ فـى الـدُّنيا دُعـاءَ بنَصْـرِهِ يَـرُدَّدُهُ البَيْـتَ العَتِيـقُ ويَثْـربُ[1]

فهذه الأبيات تشيد ببعض أعمال السلطان عبد الحميد التى تخدم الإسلام والمسلمين، فهو امتداد للخلافة الإسلامية. والجالس على عرشها. والقائم بما أمر الله. فترعرعت به دوحة الإسلام وأجذب الشرك وأضمحل.

فقد قرب بين المسجدين الأقصى بالشام، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، بخط حديدي لخدمة المسلمين، وختم الشاعر قصيدته بأن الدعاء بالنصر له يتردد فى البيت العتيق والمدينة المنورة.

هذا، كما هنأ حافظ إبراهيم السلطان نفسه بتوليته الخلافة،

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 15: 18. أبيات متفرقة.

بقصيدة والتى يقول فيها :

أَثْنَــى الحَجِــيجُ عليــكَ والحَرَمــانِ ... وأَجَـلَّ عِيـدَ جُلُوسِـكَ الـثَّقَلانِ

أَرْضَــيْتَ رَبَّــكَ إذْ جَعَلْــتَ طَرِيقَُــه ... أَمْنـاً وفُـزْتَ بِنْعَمـةِ الرِّضْـوانِ

وَجَمعْـتَ بِالدَّسْــتُورِ حَوْلَــكَ أُمــةً ... شَتى المَذَاهِبِ جَمَّـةَ الأَضْعانِ

فَغَدْوتَ تَسْكُنُ فـى القُلـوبِ وتَرْتَعِـى ... حَبَاتِهـا وتَحُـلُّ فـى الوِجْـدانِ

راعَيْــتَهُمْ حتّــى عَلِمْــتَ بِــأَنَّهمْ ... بَلَغُـوا أَشُـدَّهُمُ علـى الأَزْمـانِ

فَجَعلْـتَ أَمْـرَ النّـاسِ شُـورَى بَيْـنَهُمْ ... وأَقَمْـتَ شَـرْعَ الواحِـدِ الـدَّيانِ

لـو أَنّهـمْ وَزَنُـوا الجُيُـوشَ بِمَشْـهَدٍ ... رَجَحَتْ بِجَيْشِكَ كِفَّةُ المِيزانِ[1]

ثم يقول :

أَدْرَكْــتُم الدُّسْــتُورَ غيــرَ مُلَــوَّثٍ ... بِــدَمٍ ولا مُتَلَطِّخــا بِهَــوانِ

وفَعَلْــتُمُ فِعْــلَ الرجــالِ وكنــتمُ ... يــومَ الفَخَــارِ كأُمّــةِ اليابــانِ

فَتَفَيَّئُــوا ظِــلَّ الهِــلالِ فإنّــه ... دَمُ الَمبَــرّةِ واسِــعُ الإحْســانِ

يَرْعَــى لُموسَــى والَمسِــحِ وأحمــدٍ ... حَــقَّ الــوَلاءِ وحُرْمَــةَ الأَدْيــانِ

فخُذُوا الَمواثِق والعُهودَ على هُدَى الت ... وْراةِ والإنجيــلِ والفُرْقَــانِ[2]

***

(1) ديوان حافظ إبراهيم ، ص 44.
(2) المصدر السابق، ص 45 : 46.

(2) الخلافة الإسلامية وأثرها - الخلافة العثمانية نموذجا-

كان المسلمون – فى أوائل القرن الماضي – يتوجهون إلى تركيا، كما يتوجهون إلى مكة المكرمة؛ فهذه قلب الإسلام الخافق، وتلك سنده الذى يذود عنه بالسلاح[1]. فلا غرابة أن يقف حافظ إبراهيم إلى جانب الخليفة، فهو الممثل لدولة الخلافة، والجامع لشمل المسلمين، والمدافع عن الإسلام من أجل إعلاء كلمة الدين؛ ومن ثم وجدناه يهنئ السلطان عبد الحميد، ويشير بأعماله وأمجاده – على نحو ما أشرنا – وهو راضي النفس، فخور بما تقوم به الخلافة بعد فوزها فى حرب اليونان التى انتهت عام 1898م[2].

هذا، وتدخل تركيا فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، فيقف الشعراء إلى جانب تركيا عاصمة الخلافة، يشدون أزرها بكل ما أوتوا من فصاحة وبيان.

وباشتعال نار الحرب وتضرّمها، كثرت ضحاياها من الجانبين. ويفرض الإنجليز فى مصر على المفكرين والشعراء القيود، حتى لا يعبروا عن مشاعرهم وآرائهم؛ بل قاموا بعزل الخديوي عباس الثاني المعروف بولائه للعثمانيين، وتولية السلطان حسين كامل مكانه.

وبانتهاء الحرب العالمية الأولى فى نوفمبر 1918م، يرى حافظ كيف تمزقت الخلافة العثمانية، وتفرق المسلمون أيدى سُبا، واستولى الإنجليز والفرنسيون على معابر البسفور، واحتلوا بجنودهم استانبول.

---

(1) الأدب العربي المعاصر في مصر للدكتور/ شوقى ضيف، ص 109.
(2) راجع دولة الخلافة الإسلامية لعبد الرشيد سالم، ص 124. وكالة المطبوعات، الكويت.

يرى حافظ إبراهيم هذا، فيفزعه ويروعه، ويبث آلامه وأحزانه فى قوله:

(أيا صُوفِيا) حانَ التَّفَرّقُ فاذكُرِي
∴ عُهُودَ كِرامٍ فيكِ صَلّوا وسَلّمُوا

إذا عُدْتِ يوماً للصَّليبِ وأَهْلِه
∴ وحَلّى نَواصِيكِ المَسِيحُ ومَرْيَمُ

ودُقّتْ نَواقِيسٌ وقامَ مُزَمّرٌ
∴ مِنْ الرُّومِ فى مِحْرابِه يتَرَنَّمُ

فلا تُنْكِرِى عَهْدَ المَآذِنِ إنّه
∴ على الله مِن عَهْدِ النَّواقِيسِ أَكْرَمُ

تَبارَكْتَ ، (بَيْتُ القُدْسِ) جَذْلانُ آمِنٌ
∴ ولاَ يأمَنُ (البَيْتُ العَتِيقُ) المُحَرَّمُ

أَيُرْضِيكَ أنْ تَغْشَى سَنابِكُ خَيْلِهِمْ
∴ حِماكَ وأنْ يُمْنَى (الحَطِيمُ) و(زَمزَمُ)؟

وَكيفَ يَذِلُّ المُسْلِمُون وَبَيْنَهُم
∴ كتَابُكَ يُتْلَى كلَّ يَوْمٍ ويُكْرَمُ؟

نَبِيُّكَ مَحْزُونٌ وَبَيْتُكَ مُطْرِقٌ
∴ حَياءً وأَنْصارُ الحَقيقةِ نُوَّمُ

عَصَيْنا وخالَفْنا فعاقَبْتَ عادِلاً
∴ وحَكَّمْتَ فينا اليومَ مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُ[1]

ويبكى حافظ إبراهيم تلك الأماكن ويناشدها إن هي عادت يوماً للصليب ألا تنسى مجدها العريق فى عهد المسلمين، فقد أضحت معابد النصارى فى فرح وأمن، ومعابد المسلمين فى هلع وخوف. ولذلك يخشى الشاعر أن يمتد ذلك إلى البيت الحرام، فسقوط الآستانة فى يد

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 402 : 403.

الإفرنج قد يؤدى إلى سقوط ولاياتها.

وهكذا يتضح لنا على ضوء تلك الأشعار التي نظمها حافظ إبراهيم فى الخلافة العثمانية؛ ثناء وبكاء – يتضح مدى شيوع الروح الإسلامية فى قصائده، متمثلة فى كثير من الألفاظ والمعاني الدينية وغيرهما.

(3) وحدة الصف العربي وتوثيق الروابط بين الأقطار الإسلامية:

أمر اللّه سبحانه – للحفاظ على الإسلام وأهله وأرضه – بإعداد العدة لإرهاب العدو وصرفه عن التفكير فى النيل من المسلمين – فى قوله – جل شأنه- : "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ"(1).

ولا ريب أن من أقوى العُدد وحدة الصف، وتوثيق الروابط بين أبناء الأمة الإسلامية وبلدانها؛ وهذا هو ما حرص عليه الإسلام فى قوله تعالى: "وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ"(2).

ولقد كانت قضية الوحدة من أهم القضايا التى عُنى بها حافظ إبراهيم فى حياته؛ بدافع من دينه ووطنيته، وقد نضح هذا الاهتمام فى أشعاره فى مواطن كثيرة ، ومناسبات مختلفة، كتلك التى أتيحت لتكريم جماعة من السوريين؛ حيث ينطلق داعيا، ومؤكداً على وحدة مصر وسوريا، فى قوله:

لِمصْرَ أم لِرُبوعِ الشَّامِ تَنْتَسِبُ هُنا العُلاَ وهُناكَ المَجْدُ والحَسَبُ

---

(1) سورة الأنفال ، الآية 60.
(2) سورة آل عمران ، الآية 103.

رُكْنانِ للشَّرْقِ لازالَتْ رُبُوعُهما ... قَلْبُ الهِلالِ عليها خافِقٌ يَجِبُ
خِدرانِ للضّادِ لَم تُهْتَكْ سُتُورهُما ... ولا تَحَوَّلَ عن مَغْناهُما الأَدَبُ
أمُّ اللُّغاتِ غَداةَ الفَخْرِ أُمُّهُما ... وإنْ سَأَلْتَ عن الآباءِ فالعَرَبُ
أَيَرْغَبانِ عن الحُسْنَى وبَيْنَهُما ... فى رائعاتِ المعَالي ذلكَ النَّسَبُ[1]

فالشاعر هنا يشيد بتلك الروابط والوشائج التى تجمع بين هذين القطرين الشقيقين، فلغتهما واحدة، وأصلهما العربى واحد. ومن ثم يدعوهما للوحدة والوفاق تلبية لنداء الإسلام، ونزولاً على مبادئه القوية السمحة.

ويقول فى قصيدة أخرى:

إنما الشَّامُ والكِنانَةُ صِنْوَا ... نِ ورَغْمَ الخِطُوب عَاشَا لِزاما
أُمْكُمُ أُمُّنَا وَقَد أَرْضَعَتْنَا ... مِنْ هَواها ونَحْنُ نأبَى الفِطَاما
قد نَزَلْنا جِوارَكم فحَمِدْنا ... منكمُ الودّ والنَّدَى والذَماما
وحَلَلْنا فى أرْضِكم فأصَبْنا ... مَنْزِلاً مَخْصِباً وأهلاً كِراما
وغَشِينا دِيارَكم حَيْثُ شِئْنا ... فَلقِينا طَلاقةً وابتساما
وشَرِبنا من نِيلكم فنَسِينا ... ماءَ لُبْنانَ سَلْسَلا والغَماما
وقَبَسْنا من نُوركم فكَتَبْنا ... وأَجَدْنا نِثارنا والنِّظاما
وأَعَاداَ عَهْدَ الرَّشِيد لَعبّا ... سَ فكانا يراعَه والحُساما
فأشارت فتاةُ مصْر وقالت: ... قَدْكِ، لم تَتْرُكي لمِصْر كَلاَما[2]

فالشاعر فى هذه الأبيات يشير إلى الروابط الوطنية والوشائج الإسلامية التى تجمع بين الشام والكنانة، فهما صنوان على الرغم من

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 268 : 269.
(2) ديوان حافظ إبراهيم، ص 60.

تلك الخطوب التى تعرضتا لها، فلغتهما وأصلاهما واحد. ولا شك أن فى وحدتهما وترابطهما حفاظاً على ما دعا إليه الإسلام، وقد تجلى ذلك فيما كان فى جوارهم وودهم وكرمهم، وما غشاهما من طلاقة وابتسام لدرجة أن شربهما من النيل أنساهما ماء لبنان السلس.

ثم يشير الشاعر إلى ما كانت عليه الأمة الإسلامية فى عهد هارون الرشيد ذلك الخليفة الذى كان عصره حافلاً بالأدباء والشعراء. وقد شبه الشاعر ما كان سائداً فى عهد الخديوي عباس حلمي الثاني بما كان سائداً فى عهد الرشيد.

ثم نجده يختم قصيدته بالتضرع إلى الله أن يديم ملك عباس ناضراً بساماً فهو حامى الحمى والأمل المرجو فيقول:

واسألوا اللهَ أن يُديمَ عَلَينا ... ملك "عباس" ناضراً بَسّامَا

هو آمالنا وحامِي حمانا ... أيّد اللهُ مُلْكَه وأدَاما[1].

ولا شك أن عروس قصائد حافظ إبراهيم فى مجال توثيق الرابطة الأخوية بين لبنان ومصر، هى تلك القصيدة التى أنشدها فى بيروت سنة 1929م. ويقول فيها:

لِيَ مَوْطِنٌ فى رُبْوعِ النِّيلِ أعظِمُهُ ... ولِى هُنا فى حِماكُمْ مَوْطِنٌ ثانِ

إنّى رأيتُ على أهْرامِها حُلَلاً ... مِنْ الجَلالِ آراهَا فَوْقَ (لُبْنانِ)

أقَضْي المصَيفَ بُلْبنانٍ على شَرَف ... ولا أحُولُ عَن المَشْتَى (بُحلْوانِ)

عَلَّى أجاوِرُكُمْ فى القَوْلِ مُقْتَدِياً ... بشاعِرِ الأَرْزِ فى صُنْعٍ وإتقانِ

لابدْعُ إنْ أخصَبَتْ فيها قرائحُكمْ ... فأعْجَزَتْ وأعادتْ عَهْدَ (حَسّانِ)

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 134.

تاهَتْ بَقْبرِ (صَلاحِ الدّين) تُرْبَتُها ... وتــاهَ أحْياؤُهــا تيهّــا (بَمْطــرانِ)

أَبَــتْ أُمَيّــةُ أَنْ تَفْنَــىَ مَحامِـدها ... علــى المَــدَى وأَيــنَ أَبْنــاءُ غَسّــانِ

لا فَرْقَ ما بَيْنَ بُوذِي يَعِيشُ به ... ومُسْــــلِمٍ ويَهُــــودِيَ ونَصْــــرانِي

مــا بــالُ دُنْيــاهُ لمّــا فــاءَ وارِفُهــا ... عليــه قــد أَدْبَــرَتْ مِــنْ غَيْــرِ إيــذانِ

عَهْدُ (الرّشيدِ) (بَبغْدادِ) عَفَا ومَضَى ... وفى (دِمَشْق) انطَوَى عَهْدَ (ابن مَرْوَانِ)

لا تَسَلْ بَعْدِه عن عَهْدِ (قُرْطُبَةٍ) ... كيــف انْمَحَــى بــين أَسْــيافٍ ونيــرانِ

فعَلَّمــوا كــلَّ حــيَ عنــد مَوْلِــدِه ... عليــــكَ لِلّهِ والأوطــــانِ دَيْنــــانِ[1]

فتلك قصيدة طويلة، اخترت منها هذه الأبيات لندلل من خلالها على ما تغنى به الشاعر "حافظ إبراهيم" من روابط تربط بين مصر ولبنان، مشيراً إلى وشائجها العربية والإسلامية. فهما موطن واحد حيث ربط الشاعر بين حُلل الإجلال والعظمة التي يراها فوق أهرامات مصر وفوق جبال لبنان.. فهو إن قضى المصيف بلبنان على جبالها المرتفعة فلابد أن يكون مشتاه بحلوان.

ثم سرعان ما يذكرنا بعهد حسان بن ثابت الأنصاري. الشاعر المعروف الذى وقف يدافع عن المهاجرين والأنصار بدفاعه عن الإسلام وكأنه يريد أن يقول: إن شاعر الأرز "خليل مطران بك" هو شاعر مصر ولبنان، فتلك الأماكن التى تفخر بأن تربتها تضم قبر صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية وبطل الحروب الصليبية هى نفسها تلك التربة التى يفخر أحياؤها بالشاعر خليل مطران بك.

فلقد استطاعت تلك الأماكن أن تحقق الكثير من الأمجاد

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 134: 139 " أبيات متفرقة من القصيدة"".

الإسلامية العظيمة فى عهد بنى أمية. ثم نجده يشير إلى التسامح الذى جاء به الإسلام إلى تلك الأماكن التى يعيش فيها البوذي والمسلم واليهودي والنصراني دون أدنى فرق بينهم.

ثم يشير الشاعر إلى انقضاء عهد الرشيد وعهد بنى أمية وكذلك عهد قرطبة، كل تلك العهود الإسلامية العظيمة التى ما أضاعها إلا التفرق والاختلاف. ومن ثم فلا سبيل أمامنا إلا الوحدة والتضامن بين شعبينا فى مصر ولبنان.

❖❖❖

(4) الاحتفاء بالشعائر والمناسبات الدينية، وتقدير الدعاة والمصلحين من أبناء الأمة الإسلامية:

أشرنا من قبل إلى أن حافظ إبراهيم تعايش مع أبناء الشعب، واندمج معهم، وأحس بإحساسهم، وشاطرهم سراءهم وضراءهم. ومن طبيعة الشعوب الإسلامية – وبخاصة فى الأحياء الشعبية فى كل منها – الاحتفاء بالشعائر الدينية، والاحتفال بالمناسبات الإسلامية؛ التى لا يعّد الاهتمام بها، والوقوف عندها؛ رِدَّةً إلى الماضى؛ أو تخلفاً عن ركب الحضارة؛ أو عجزاً عن النظر إلى الغد، والتسلح للمستقبل؛ إذ إن الاحتفال بهذه، والاحتفاء بتلك، من أدوات العدة لهذا الغد المأمول، والمستقبل المنشود؛ فهما يوقظان المشاعر الإيجابية لدى الشباب، ويرفعان من روحهم المعنوية، ويُحييان العظيم الجم من المعانى والقيم، التى ينبغى عليهم تمثلها، والأخذ بها، والسير على دربها، حيث يتسنى لهم أن يبنوا كما بنى سلفهم

الصالح، وأن يعيدوا للأمة العربية والإسلامية أمجادها التى يذكرهم بها، ويناشدهم من أجلها حافظ إبراهيم بوازع من دينه، ودافع من وطنيته، فى قوله الذى وسمه بـ (نشيد الشباب المسلمين)، والذى ظهرت فيه الروح الإسلامية جليةً فى ألفاظه ومعانيه وصوره.

أَعِيدُوا مَجْدَنا دُنْيـاً ودِينَـا ... وذُودُوا عـن تُـراثِ المُسْـلِمينا
فَمَـنْ يَغْنُـو لَغَيْـرِ اللهِ فِينـا ... ونحـنُ بَنُـو الغُـزاةِ الفاتحِينـا
مَلَكْنا الأَمْرَ فوقَ الأرضِ دَهْرَا ... وخَلَّـدْنا علـى الأيـامِ ذِكْـرَى
أَتَى (عُمَرٌ) فأَنْسَ عَدْلَ (كِسْرَى) ... كـذلِكَ كـانَ عَهْـدُ الرَّاشِـدينَا
جَبَيْنَا السُّحْبَ فى عَهْدِ الرَّشِيد ... وبَاتَ النـاسُ فـى عَيشٍ رَغِيـدِ
وَطوَّقَـت العَـوارِفُ كـلَّ جِيـدِ ... وكـان شِـعارُنا رِفْقـاً ولِينَـا
سَـلُوا (بَغْـدادَ) والإسـلام دِيـنُ ... أكـانَ لهـا علـى الـدُّنيا قَـرينُ
رِجـالٌ للحَـوادِثِ لا تَلِـينُ ... وعِلْـمٌ أَيَّـدَ الفَـتْحَ المُبِينـا

نعـم، حُـق للشـاعر أن يطلـق علـى تلـك الأبيـات نشـيد الشـبان المسلمين، فهى تشير بمعانيها وألفاظها إلى أمجاد المسلمين وقوتهم على مرّ العصور منذ بداية الإسلام حتى عهد هارون الرشيد، هذا الخليفة الذى فاضت الخيرات وانتشرت المعارف، وأصبحت (بغداد) عاصمة الملك، فريدة زمانها فى أيامه، يأتيها الخراج من شتى أقطار الدنيا.

ثم يختم تلك الأبيات بقوله :

فلَسْنا مِنهمُ والشَّرْقُ عانِى ... إذا لـمْ نَكْفِـه عَنَّـتَ الزَّمـانِ
ونَرْفَعُـه إلـى أعْلَـى مَكـانِ ... كما رَفَعُوه أو نَلْقَى المَنُونا[1]

ففى هذين البيتين يشير حافظ إبراهيم إلى ضرورة الوقوف إلى

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 315.

جانب الشرق الأسير. وحمايته من عنت الزمان ليرتفع إلى أعلى مكان، أو نموت فى سبيله. وأما قصيدته التى أنشأها تهنئة للخديوى عباس الثانى بقدومه من الحج "1327هـ - 1909م". فتفيض بالكثير من الألفاظ والمعانى الإسلامية التى أضفاها على الخديوى عباس فى قوله:

فلّلِه ما أبْهاكَ فى مِصْر مالِياً ... ولله ما أتْقاكَ فى البَيْتِ مُحْرِماَ
أَقولُ وقد شاهَدْتُ رَكْبَكَ مُشْرِقاً ... وقد يَمّمَ البَيْتَ العَتِيقَ المُحَرَّما
مَشَتْ كَعْبَةُ الدنيا إلى كَعْبَةِ الهُدَى ... يفيضُ جَلالُ المُلْكِ والدِّينِ مِنْهُما
....
أَسِيرُ خِلالَ الرَّكْبِ نحوَ حَظيرَةٍ ... على رَبِّها صَلَّى الإلَه وسَلَّما
إلى خَيرِ خَلْقِ اللهِ مَنْ جاءَ ناطِقاً ... بآياته إنْجِيلُ عِيسَى بنِ مَرْيَما[1]

وكذلك جاءت قصيدته "تحية العام الهجرى" تحمل الكثير من المعانى والألفاظ الإسلامية، حيث يمثل يوم الهجرة حدثاً مهماً من أحداث الإسلام، وقد سرد حافظ إبراهيم فى تلك القصيدة الكثير من الحوادث التى وقعت فى مختلف البلاد الإسلامية طوال العام المنصرم، مشيراً إلى هجرة الرسولﷺ من مكة إلى المدينة، وتأسيسه لدولة الإسلام.

يقول حافظ:

أَطَلَّ على الأَكْوانِ والخَلْقُ تَنْظُرُ ... هِلالٌ رَآهُ المُسْلِمُونَ فكَبَّرُوا
تَجَلَّى لهمْ فى صُورةٍ زَاد حُسْنُها ... على الدهرِ حُسْناً أنّها تَتَكَرَّرُ
....
وأَذْكَرَهُمْ يوماً أغَرَّ مُحَجَّلاً ... به تُوِّجَ التاريخُ والسَّعْدُ مُسْفِرُ

(1) المصدر السابق، ص 51.

هاجَرَ فيه خيرُ داعٍ إلى الهُدَى يَحُفُّ بـه مِـنْ قُـوةِ اللهِ عَسْـكَرُ
يُماشِـيهِ جِبْرِيـلٌ وتَسْـعَى وَراءه مَلائِكَـةٌ تَرْعَـى خُطـاهُ وتَخْفِـرُ
بُيُسراهُ بُرْهـانٌ مِـنْ اللهِ سـاطِعٌ هُـدًى، ويُمْنَـاه الكتّـابُ المُطهَّـرُ
فكانَ على أَبْوابِ (مَكَّةَ) رَكْبُه وفـى (يَثْـرِبٍ) أنـوارُه تَتَفَجَّـرُ
....
وفى عالَمِ الإسْلامِ فى كلِّ بُقْعَةٍ لـه أَثَـرٌ بـاقٍ وذِكْـرٌ مُعَطَّـرُ[1]

هـذا، وعلـى الـدعاة والمصلحين، فـى كـل عصـر، تعقـد الآمـال الكبار؛ لرفع راية الإسـلام والنهوض بـالوطن، وفـى تقدير هـؤلاء تقدير للأمـة بأسـرها، وحث لشبابها على الاقتداء بهم، والسير على دربهم، وحمل الأمانـة بعدهم، ليكونوا محل التبجيل والتخليد مثلهم. وبذلك تتواصل الأجيال وتستمر المسيرة وتتحقق لهم خلافة الله فى الأرض.

وقد ارتبط حافظ إبراهيم بالكثير من مصلحي عصره ارتباطاً وثيقاً؛ وبخاصة الشيخ الإمام محمد عبده، الذى حرص على ملازمته، وحضور درسه، وارتياد مجلسه، وأفاد منه أيما إفادة فى كثير من العلوم، كما يشير حافظ نفسه فى قوله: "فقد كنت ألصق الناس بالإمام أغشى داره وأرد أنهاره، وألتقط ثماره ..... وكان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته، وينتقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الأحلام، ويسمو بأنفسنا إلى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق .... ولم يزل بعد ذلك همه – رحمه الله – يلقى فى الأزهر دروس التفسير، وفى داره دروس الحكمة، حتى مضى لسبيله"[2].

---

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 351 : 352.
(2) ليال سطيح، ص 121. حافظ إبراهيم، دار الهلال، القاهرة، 1975م.

وعزيز على الأمة سقوط نجم من نجومها، ورحيل رمز من رموزها؛ فما بالك إذا كان هذا الرمز صديقاً صدوقاً، وأستاذاً معطاء من كبار رجالا لإصلاح والتجديد فى الإسلام، كالشيخ الإمام بالنسبة لشاعرنا حافظ إبراهيم؟! أجل إن الخطب فادح، والمصاب جَلَل؛ فلا غرابة أن يبكى فيه كل القيم والفضائل، ويودع معه قوام الحياة ونعيمها، ويندد بمن جهل قدره، وجحد علمه؛ "فلقد كان تأثير الإمام رحمه الله فى الشاعر حافظ إبراهيم كبيراً وعظيماً، ولذلك أخذ اليأس يتسرب إلى نفسه بعد وفاة الأستاذ الإمام، حتى ليخشى أن تطول حياته، يقول فى رثائه:

سَلامٌ على الإسْلاَمِ بَعْدَ مُحَمدٍ ... سَلامٌ على أيَامِه النّضِراتِ
على الدِّينِ والدُّنْيا، على العِلْمِ والحِا ... على البِرِّ والتَّقْوَى. على الحَسَنات
لقد كنتُ أَخْشَى عادِيَ المَوتِ قَبْلَه ... فأَصْبَحْتُ أَخْشَى أَنْ تَطُوَلَ حَياتي
لقد جَهِلُوا قَدْرَ الإمامِ فأَوْدَعُوا ... تَجالِيدَه في مُوحشٍ بفَلاة
ولو ضَرَحُوا بالمَسْجِدَيْنِ لأَنْزَلُوا ... بِخَيْرِ بقاعِ الأرضِ خَيْرَ رُفات
تَبارَكْتَ هذا الدِّينُ دِينُ مَحَمدٍ ... أَيُتْرَكُ فِي الدُّنيا بغَيْرِ حُماة؟
تَبارَكْتَ هذا عالِمِ الُّرقِ قد قَضَى ... ولانَتْ قَناةُ الدِّينِ للغَمَزات[1]

فالإمام رحمه الله رمز من رموز الإسلام، وعلم من أعلامه فى هذا العصر، ومن ثم كانت خسارة الإسلام كبيرة بفقده. وقد جاء رثاء حافظ له رثاءً للإسلام الذى فقد بفقده حصناً قوياً له، ومدافعاً أميناً عنه.

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 458.

إشادته بالخلافة العثمانية:

لقد عاصر حافظ إبراهيم أهم أحداث الأمة الإسلامية وشهد سقوط الخلافة العثمانية وهجمة الاستعمار، ولذا تجلت الروح الإسلامية فى شعره، كثير له نظمه فى الخلافة العثمانية، إذا كان المسلمون يتجهون إليها أول القرن، كما يتجهون إلى مكة، فهذه قلب الإسلام. وتلك سنده الذى يذود عنه بالسلاح[1]. ومن ثم يتبدى لنا وقوفه إلى جانب الخليفة، فهو الممثل لدولة الخلافة والجامع لشمل المسلمين والمدافع عن الإسلام من أجل إعلاء كلمة الدين، ومن ثم نجده يهنئ السلطان عبد الحميد بمناسبة جلوسه على عرش الخلافة، فنشعر أنه راضي النفس، فخور بما تخوم به الخلافة بعد فوزها فى حرب اليونان التى انتهت عام 1898م. وبعد أن اتجه الخليفة فى سنة 1900م. لإنشاء خط سكة حديد الحجاز الذى سيربط معظم دول الخلافة العثمانية بعضها ببعض، والذى سيجعل أداء فريضة الحج عملاً ميسراً بعد أن كان المسلمون يتحملون فى سبيل ذلك مشاق مضنية، وسيساعد هذا على انتشار التجارة بين الدول الإسلامية[2].

يقول ممجداً السلطان عبد الحميد :

تَجَلى على عَرْشِ الجَلالِ وتاجه

∴ يَهِشُّ وأعْوادُ السَّرِيرِ تُرَحِّبُ

سَمَا فَوْقَه والشَّرْقُ جَذْلانُ شَيِّقٌ

∴ لطَلْعَتِه والغَرْبُ خَذْلانُ يَرْقُبُ

---

(1) الأدب العربى المعاصر فى مصر للدكتور شوقى ضيف، ص 109.

(2) راجع دولة الخلافة الإسلامية لعبد الرشيد سالم، ص 124، وكالة المطبوعات، الكويت.

فقـامَ بـأَمْرِ اللهِ حتـى تَرَعْرَعَـتْ

∴ بِـه دَوْحَـةُ ٱلإسْـلامِ والشِّـرْكُ مُجْـدِبُ

وقَـرَّبَ بَـيْنَ المَسْـجِدَين تَقَرُّبـاً

∴ إلـى المَلِـكِ الأَعْلَـى فِـنعْمَ المُقَـرِّبُ

وكم حاوَلُوا فى الأَرضِ إطْفاءَ نُورِه

∴ وإطْفاءُ نُورِ الشَّمْسِ مِنْ ذاكَ أَقْرَبُ

فَـراعَهُمُ منـه بجَـيْشٍ مـدَجَّجٍ

∴ له فى سَبِيلِ اللهِ والحَقِّ مَذْهَبُ[1]

ثم نجده مرة أخرى يطالعنا بتهنئته بالسلطان عبد الحميد بتوليه الخلافة عام 1908م. وكان هذا التاريخ يناسب الانتهاء من إنشاء سكة حديد الحجاز. كما يناسب إعلان الدستور.

فيقول: وعندما تدخل تركيا فى الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، ويقف الشعراء يشدون أزرها بكل ما أوتوا من بيان وفصاحة.

وباشتعال نار الحرب وازدياد لهيبها كثرت ضحاياها من الجانبين، وفرض الإنجليز فى مصر على المفكرين والشعراء القيود حتى لا يعبروا عن أرائهم ومشاعرهم، وقاموا بعزل الخديوى عباس الثانى المعروف بولائه للعثمانيين، وتولى السلطان حسين كامل مكانه.

ولكن سرعان ما تثور مشاعر حافظ إبراهيم، فيعبر عن مشاعره الإسلامية فى قصيدته الرائعة التى أراد من خلالها أن يعبر عن عظمة الإسلام وعدل حكامه الأوائل الذين سادوا الدنيا بعدلهم. فيقول مادحاً الفاروق عمر بن الخطاب.

يـا رافِعـاً رايـةَ الشُّـورَى وحارِسَـها ∴ جَـزَاكَ رَبُّـكَ خَيْـراً عـن مُحبِّيهـا

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص16.

لَم يُلْهِكَ النَّزْعُ عن تأييد دَوْلَتِها ∴ وللمَنِيّـــــةِ آلامٌ تُعانِيهـــــا
لَـمْ أَنْـسَ أَمْـرَكَ للمِقْـدادِ يَحْمِلُـهُ ∴ إلـى الجَماعـةِ إنْذارا وتَنْبِيها[1]

ثم ما نلبس أن نجده يمضى فى قصيدته تلك مبيناً أسس الحق والعدل التى قام عليها الإسلام، وينتهى به القول إلى الرجاء بأن يظهر فى الأمة الإسلامية الكثير من أمثال عمر بن الخطاب حتى يعود للأمة عزتها وكرامتها. فيقول :

لَعَـلَ فـى أمـةِ الإسْـلامِ نابتَـةً ∴ تَجْلـو لحاضِـرها مِـرآةَ ماضِـيها
حتـى تَرَى بَعْضَ ما شادَتْ أوائِلُها ∴ مِنْ الصُّرُوحِ وما عانَاهُ بانِيها
وحَسْبُها أَنْ تَرَى ما كانَ مِنْ (عُرٍ) ∴ حتى يُنَبِّهَ منها عَيْنَ غافِيها[2]
غافِيهـــــــــــــــا[2]

وهكذا نجد حافظ يعيش بكل مشاعره ووجدانه أحداث الأمة الإسلامية بعقل متفتح وبعين نافذة تربط بين الماضى والحاضر، وهو يُرجع تأخر المسلمين إلى ضياع مبدأ الشورى، وفقدان العدل وتهاون الحكام فى تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية، وبُعْدُ الرعية عن دين اللّه. وأن الأمة لاتصلح إلا بما صلح به أولها.

ولم يقف حافظ عند الدعوة للوحدة وتوثيق الروابط بين الأقطار الإسلامية فحسب؛ بل سرعان ما تلوح أمامه بارقة أمل، حيث يرى هذا الأمل ممثلاً فى المصلحين من أبناء الأمة الإسلامية أمثال: الإمام محمد عبده، وجمال الدين الأفغانى. فقد كان اعتزازه بالإمام محمد عبده وحبه له وحرصه على حضور دروسه ومجالسه، وقد كان الإمام حجة فى الدين والتفسير والعلوم الشرعية، فلا شك أن يكون حافظ قد التقط منه فى

(1) ديوان حافظ إبراهيم، ص 91.
(2) المصدر السابق، ص 97.

مجالسه الكثيرة الكثير.

خاتمة

تناول هذا البحث الحديث عن الروح الإسلامية في شعر حافظ إبراهيم فتطرقت للحديث عن نشأته وثقافته، وتأثره بالقرآن الكريم والحديث النبوى، ونزعته الإسلامية الواضحة فى قصيدته العمرية، وألفاظه ومعانيه الإسلامية التى تطرق إليها فى الكثير من أشعاره. وقد أشرت إلى إشادته بالخلافة العثمانية، وكذلك دعوته للوحدة بين أبناء الأمة، ورثائه للمصلحين فيها أمثال الشيخ الإمام محمد عبده وغيره.

أجل، إن حافظ إبراهيم كان شاعراً بطبعه، وقد ظهرت مواهبه الشعرية فى سنٍّ مبكرة. ومع ذلك فلم يقف عند السليقة والإلهام؛ بلا أخذ نفسه بمطالعة التراث الشعرى وحفظه – وقد عُرف بقوة حافظته، واتساع ثقافته– وسار على درب الشعراء الأقدمين ومحاكتهم فى الجيد من إبداعهم، مُضيفاً عليه، وسابغاً إياه، بفيض من عبقريته وشاعريته، وبذلك كله استطاع أن يبذّ أقرانه من الشعراء، ويستوى على عرش الشعر في عصره.

وقد تميز حافظ إبراهيم بتواضعه وشعبيته؛ حيث خالط طبقات الشعب عامة، وجالس الأميين والأدباء. وذاق حلو الحياة ومرها؛ وتقلب في بؤسها ونعيمها فجاء شعره في أغراضه ومعانيه صورة لما تقلب فيه. فلا غرو إذا كان حافظ بحق شاعر الوطنية وشاعر الشعب وشاعر السياسة والاجتماع لم يجاريه في هذا شاعر من شعراء عصره.

"ويعد حافظ في الطليعة من شعراء العصر الحديث وقد قلد البارودي وتقبل طريقته منذ تفتحت أكمام شعره، كما قلد كثيراً من الشعراء الغابرين وتأثر بما استظهره من الشعر الرصين. ثم ابتكر في شعره نهجاً تميز به عمن يعاصرونه من الشعراء قوامه الأسلوب الرائق والمعنى الشائق، وعذوبة الكلمات ورشاقة العبارات، والتجاوب الوثيق بين اللفظ والمعنى. وكان شعره سجلاً للأحداث والمحن السياسية في مصر ومرآة لأحوال وطنه ترى فيه صرخة الوطنية وصرخة الألم وصورة المظاهرات والثورات. فكان لذلك شاعر الشعب."[1]

وكما كان حافظ شاعر الوطنية التي أضفت على شعره هالة من العظمة والمجد؛ كان - بلا مراء - خير ترجمان للشعب في آماله وأحاسيسه وخير مواس له في مآسيه وآلامه. وإلى جانب ذلك كله فهو لا يفتأ يدعو قومه إلى التسلح بالأخلاق في جهادهم للحرية. إذ يرى الأخلاق قوام الجهاد الصحيح؛ ومن ثم تجلت الروح الإسلامية في شعره فكان من أهم مظاهرها:

(1) تأثره القوي بالقرآن الكريم واستلهامه الكثير من ألفاظه، وتمثله العديد من آياته وقصصه. ولم لا؟ وهو يعلم جيداً أن القرآن الكريم هو قمة البلاغة والبيان فهو الذي أعجز العرب عن الإتيان بمثله وهم أهل الفصاحة وأصحاب البيان.

(2) وجد حافظ في الكلمة القرآنية والأسلوب القرآني مثله الأعلى

---

(1) الأدب العربي الحديث ومدارسه للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص117، الناشر مكتبة الأزهر.

وطلبته الضالة، فاللفظة القرآنية آسرة بفخامتها وضخامتها مثيرة بجرسها، ورنينها وذلك لما للصيغ الدينية من أثر قوي في القلوب والأسماع.

(3) كذلك جاءت قصيدته العُمرية التي تناولنا فيها عمر بن الخطاب وأعماله العظيمة مثالاً قوياً يحتذى به، ودليلاً واضحاً على نزعته الإسلامية.

(4) كثرة معانيه وألفاظه الإسلامية التي جاءت في جُل قصائده.

(5) تأثره ببعض الأحاديث النبوية وتضمينها في شعره.

(6) وقوفه بجانب الخلافة العثمانية وإشادته بأعمال السلطان عبدالحميد في خدمة الإسلام والمسلمين. وفزعه وخوفه من تداعي دولة الإسلام بعد استيلاء أعداء الإسلام على البسفور ودخولهم الآستانة عاصمة الخلافة الإسلامية وقلبها النابض.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

1. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. للدكتور محمد محمد حسين، مكتبة الآداب.
2. الأدب الصوفي في مصر، د/ علي صافي حسين.
3. الأدب العربي الحديث ومدارسه للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر مكتبة الأزهر.
4. الأدب العربي المعاصر في مصر، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة التاسعة.
5. الأدب العربي في مصر تأليف محمود مصطفى. المؤسسة المصرية العامة للنشر 1387هـ- 1967م.
6. أدبنا في عصر الولاة للدكتور/ محمد كامل حسين، القاهرة، طبعة دار الفكر.
7. الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني. ط/ عز الدين - بيروت.
8. بحث الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأم، مطبعة حجازي بمصر سنة 1934م.
9. البهاء زهير، د/ مصطفى عبد الرازق، القاهرة: دار الكتب المصرية 1930م
10. البيان المغرب في أخبار الأندلس لابن عذاري المراكشي، تحقيق ليدي

بروفن سالي: بيروت، 1967م.

11. البيان والأعراب للمقريزى.

12. تاريخ الإسلام الذهبي : نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

13. التاريخ السياسى للدكتور/ عبد المنعم ماجد .

14. تاريخ الشرق الأدنى القديم للدكتور/ عبد العزيز صالح.

15. تراجم الأعيان، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

16. التطور والتجديد في الشعر المصري الحديث، دكتور عبد المحسن طه بدر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

17. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، 1388هـ/1969م.

18. تكوين مصر للدكتور/ شفيق غبريال، القاهرة، 1957م

19. حافظ إبراهيم شاعر النيل للدكتور عبد الحميد سند الجندي، دار المعارف، الطبعة الرابعة.

20. حديث عيسى ابن هشام لمحمد المويلحى، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

21. الحركة الفكرية في مصر. للدكتور/ عبد اللطيف حمزة.

22. حسن المحاضرة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط/ عيسى البابي الحلبي سنة 1967م.

23. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للدكتور/ عبد الهادي أبو ريدة. القاهرة سنة 1957م.

24. دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء المُلك- الهيئة العامة بقصور

الثقافة.

25. دراسات في أدب مصر الإسلامية للدكتور/ غريب محمد علي، دار البيان سنة 1988م.

26. دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين، د/ محمد كامل حسين.

27. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة،

28. دولة الخلافة الإسلامية لعبد الرشيد سالم، وكالة المطبوعات، الكويت.

29. ديوان (ابن النبيه المصري).

30. ديوان ابن الفارض، ص91، القاهرة مطبعة الهيئة (مؤسسة المطبوعات المصرية) 353هـ.

31. ديوان ابن سناء المُلك تحقيق/ محمد إبراهيم نصر- الهيئة العامة لقصور الثقافة.

32. ديوان ابن قيس الرقيات، محمد يوسف نجم ط/ بيروت سنة 1958م.

33. ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمي تقديم الدكتور إبراهيم الدسوقي، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

34. ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه، أحمد أمين – أحمد الزين- إبراهيم الأبياري. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987.

35. ديوان عمارة اليمني.

36. الرحمة الغيثية للعسقلاني.

37. رفع الأمر عن قضاة مصر لابن حجر . نسخة خطية بدار الكتب

المصرية.

38. الروضتين لابن بشامة المقدسي- طبعة دار الجيل- بيروت.

39. سفر نامة لناصر خسرو، المترجم إلى العربية، ترجمة د/ مصطفى الخشاب.

40. سنن الترمذى. طبعة دار المعرفة، بيروت، لبنان.

41. سيرة أحمد بن طولون، لأبي عبد الله البلوي، تحقيق محمد كرد علي، دمشق 1358هـ.

42. سيرة الأستاذ جؤذر، تحقيق د. محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادى شميرة.

43. الشخصية المصرية في الأدبين الفاطمي والأيوبي للدكتور/ أحمد سيد محمد- دار المعارف.

44. شخصية مصر " دراسة في عبقرية المكان " للدكتور/ جمال حمدان.

45. شذرات الذهب لابن العماد- طبعة القدس سنة 1351هـ.

46. الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث، بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي. طبع مطبعة المقتطف والمقطم 1948.

47. الشعر والشعراء لابن قتيبة.

48. شعراء الوطنية في مصر تأليف عبد الرحمن الرافعي ، الطبعة الثانية 1386هـ/ 1966م، الدار القومية للطباعة والنشر.

49. شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، للعقاد، ، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

50. شوقي شاعر العصر الحديث، للدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف

بمصر، الطبعة الحادية عشرة.

51. صحيح البخارى ، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

52. الطبقات الكبرى لابن سعد ، طبعة لندن سنة 1338هـ.

53. العامل الديني في الشعر المصري الحديث للدكتور/ سعد الدين محمد الجيزاوي. دار الفكر العربى، مصر.

54. فتوح مصر والمغرب والأندلس لابن عبد الحكم ، لندن سنة 1920م.

55. فجر الإسلام لأحمد أمين- الطبعة الأولى.

56. الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور/ شوقي ضيف- دار المعارف.

57. في أدب مصر الفاطمية د/ محمد كامل حسين ص 159 ط/ دار الفكر العربي سنة 1970م0

58. في الأدب المصري الإسلامي للدكتور/ محمد علي حسن ص38 مطبعة الاعتماد.

59. قصة الأدب في العالم، تصنيف أحمد أمين وزكي نجيب محمود، الطبعة الثانية، 2002م، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

60. القصص والحكم والتأملات في الأدب المصري القديم لحسن سليم، الجزء الأول.

61. القضاة والولاة للكندى

62. الكامل في التاريخ لابن الأثير- طبعة الاستقامة- القاهرة.

63. كتاب الرحمة الغيثية للعسقلاني ـ طبع بولاق سنة 1301هـ ـ

64. الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة لابن الزيات،ـ مطبعة بولاق سنة

1907م.

65. ليال سطيع، حافظ إبراهيم، دار الهلال، القاهرة، 1975م.

66. محاضرات عن حافظ إبراهيم لأحمد الطاهر، معهد الدراسات العربية، القاهرة، 1953م.

67. مصر الشاعرة فى العصر الفاطمى.

68. مصر العربية للدكتور / حسن نصار، القاهرة 1961م0

69. مصر في عهد الولاة. للدكتور / سيد الكاشف.

70. معجم الأدباء، طبعه د. فريد رفاعى.

71. المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي- الهيئة العامة لقصور الثقافة.

72. المفصل في تاريخ الأدب العربي، أحمد أمين وآخرين.

73. النجوم الزاهرة- طبعة دار الكتب.

74. نوادر المخطوطات تحقيق/ عبد السلام محمد هارون- القاهرة الخانجي مكتبة الحلبى سنة 1973م.

75. الوزراء والكتاب لأبي عبد الله محمد الجهشياري. القاهرة. 1938م

76. الوصف. الطبعة الثالثة، دار المعارف.

77. وفيات الأعيان لابن خلكان.

❖❖❖